الفصل الأول
الإعجاز الأسلوبي
في الدلالة الصوتية

الإعجاز الصوتي للقرآن

تبين لنا مما سبق في التمهيد أن إعجاز القرآن إنما هو في رصفه ونظمه في قليله وكثيره، وهذا النظم يشمل بلا ريب كل حرف في القرآن، فالنظم والرصف يبدأ من نظم ورصف الأحرف في الكلمات أو قل اختيار كلمات مشتملة على أحرف مخصوصة، ومن ثم يقع الإعجاز والتحدي برصف هذه الأحرف ونظمها في نسق وسياق خاص تدل به على معاني القرآن وأسراره.

ومن ثم ورد عن ابن عطية في المحرر الوجيز قوله: "لو نزعت حرفًا من القرآن ثم أدرت اللغة من ألفها إلى يائها لتجد ما يسد مسدّه، فلن تجد"(٢٨).

هذا، وقديما قال الجاحظ في إعجاز سور القرآن: "ولو أن رجلاً قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة لتبين له في نظامها، ومخرجها عن لفظها، وطابعها أنه عاجز عن مثلها، ولو تحدى بها أبلغ العرب لأظهر عجزه عنها"(٢٩).

ولا شك أن حروف الكلمة وبناءها الصوتي داخل لا محالة فيما عناه الجاحظ بقوله: "نظامها ومخرجها عن لفظها وطابعها".

فإما أن يكون أحد هذه الألفاظ مقصودا به أصوات الكلمة، وإما أن أصوات الكلمة أو بناءها الصوتي مما يدخل في ذلك لا محالة، أو مما تشمله دلالة تلك الألفاظ.

ومن ثم فنحن نقصد بالإعجاز الصوتي للقرآن مجيئه على هيئة خاصة من جهة البناء الصوتي، أو التشكيل الصوتي سواء لكلماته أو جمله وآياته، أو على المستوى الموسيقي أو الإيقاعي في السورة بأسرها ومدى موافقة ذلك واتساقه وتواؤمه مع المعاني والمقاصد التي تقصد إليها السورة على نحو من المواءمة والمطابقة العجيبة التي يستبعد وقوعها في مثل كلام البشر، بهذه الدرجة من المطابقة والموافقة والمواءمة لمعاني الكلام.

وهذا ما كشف عنه الأستاذ الكبير مصطفى صادق الرافعي في حديثه عن إعجاز النظم الموسيقي في القرآن حيث يقول: "وحسبك بهذا اعتبارًا في إعجاز النظم الموسيقي في القرآن، وأنه مما لا يتعلق به أحد، لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها

---

(٢٨) المحرر الوجيز، نقلاً عن د/ عبد العظيم المطعني/ دراسات في إعجاز القرآن/ مكتبة وهبة ص ٨٠٧، ولم أستطع تخريج ذلك من المحرر الوجيز لابن عطية خاصة وأن د/ عبد العظيم المطعني لم يبين مكانها في أي موضع هي في المحرر.

(٢٩) دلائل الإعجاز ص ٢٥٠ وقد اقتبسه من كتاب دلائل النبوة.

ومخارجها، ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس والجهر، والشدّة والرخاوة، والتنغيم والترقيق، والتفشي والتكرير، وغير ذلك مما أوضحنا في صفات الحروف"[٣٠].

ويقول أيضًا: "وليس يخفى أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت، بما يخرج فيه مدًّا أو غنة أو لينا أو شدة، وبما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها، ثم هو يجعل الصوت إلى الإيجاز والاجتماع، أو الإطناب والبسط، بمقدار ما يكسبه من الحدة والارتفاع والاهتزاز وبعد المدى ونحوها مما هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقى.

فلو اعتبرنا ذلك في تلاوة القرآن على طرق الأداء الصحيحة لرأيناه أبلغ ما تبلغ إليه اللغات كلها في هزّ الشعور واستثارته من أعماق النفس، وهو من هذه الجهة يغلب بنظمه على كل طبع عربي أو أعجمي، حتى إن القاسية قلوبهم من أهل الزيغ الإلحاد لتلين قلوبهم وتهتز عند سماعه؛ لأن فيهم طبيعة إنسانية؛ ولأن تتابع الأصوات على نسب معينة بين مخارج الأحرف المختلفة، هو بلاغة اللغة الطبيعية التي خلقت في نفس الإنسان"[٣١].

وسوف يدور بحثنا على بيان هذه المناسبة على ما يقتضيه البحث الأسلوبي لكلمات القرآن وتراكيبه في سياقاتها ومقاماتها التي وردت فيها.

ومن ثم يقوم هذا البحث بدراسة الدلالة الصوتية للكلمة من حيث النظر في صفات الأصوات من حيث الجهر والهمس والرخاوة والشدة والانطباق والانفتاح والاستعلاء والانخفاض والصفير والاستطالة والتفشي والمد واللين والانحراف والتكرير وغير ذلك.

ومن حيث ما يصاحب الكلمة عند النطق بها من ظواهر صوتيه كالنبر والتنغيم، ثم من حيث النظر في مخارجها المختلفة، وبحث العلاقة بين تلك السمات الصوتية للتشكيل الصوتي للكلمة ومناسبتها لسياقها ونسقها الدلالي.

---

(٣٠) الرافعي _ إعجاز القرآن/ ص١٧٧.

(٣١) السابق ص ١٧٧-١٧٨.

تأصيل

على الرغم من كون الأصوات هي اللبنات الأولى والأساس في تشكيل البناء اللغوي فإنها لم تلق من الباحثين إلى الآن العناية الكافية لاستثمار طاقاتها الدلالية، وابتعاث إيحاءاتها الثرَّة في فاعليتها الدائبة مع السياقات الأدبية.

ولعل ذلك يرجع في رأيي _ إلى أمرين: صعوبة البحث في هذا المجال الموغل في الرمزية، مع تأبيه على التقعيد والتقنين، حيث يستطيع الناظر إلى دلالات الأصوات أن يتكهن ببعض تلك الدلالات التي يضفيها عليها السياق دون أن يجزم في كثير من الأحيان أن هذه الدلالات هي فعلاً دلالات تلك الأصوات، وليست مجرد معان فرضتها الدلالة المعجمية أو الصرفية أو التركيبية، ثم قام ذهن القارئ بتحميلها على الأصوات.

والأمر الآخر وهو تأبي تلك الدلالات على التقعيد والتقنين يرجع إلى أن كثيرًا من تلك الدلالات لا ترجع إلى قيمة للصوت في ذاته بقدر ما تكون وليدة السياق وخليقته، فالسياق هو الذي حمّل الصوت هذا المعنى، وهو الذي استخدم الحرف أو الكلمة كصوت ليكسبها دلالة سياقية حينية مؤقتة، وليست دلالة دائمة تستصحب في غيره من السياقات. فكل سياق له دلالاته التي يخلعها على أصواته، وكل قارئ أو سامع له ذوقه الخاص في استكناه دلالات تلك الأصوات وتأثره بها، وإن كان هذا لا ينفي وجود حِسٍّ أو ذوق عام يكاد يشترك في فهم دلالات كثير من تلك الأصوات في السياقات والمواقف المختلفة. وإن كان ذلك يختلف _ لا محالة _ باختلاف البيئات اللغوية.

تأصيل البحث في دلالة الأصوات عند قدامى النحاة واللغويين :

إذا تتبعنا كلام النحاة واللغويين الأوائل في هذا المضمار فإننا نستطيع أن نقف على معالم هادية ومحاولات حادة يمكننا عن طريقها الوقوف على التفات هؤلاء القدماء إلى دلالة الصوت ومناسبته لمعناه.

وهذه المحاولات الجادة في هذا السبيل نجد بعضها عند الخليل بن أحمد ، وكثيرا منها لدى سيبويه في كتابه ، كما نجدها أكثر نضجا عند ابن جنى في خصائصه ، وفى كتابات ابن الأثير من بعده.

أسس التوظيف الأسلوبي والبلاغي للتشكيل الصوتي في القرآن الكريم

تمهيد:

يحاول البحث في هذا الفصل أن يكشف عن الأسس الفنية التي يقوم عليها التوظيف الأسلوبي والبلاغي للتشكيل الصوتي مستلهما في ذلك روح التراث البلاغي مع الإفادة بما أمكننا الوقوف عليه من الدراسات الأسلوبية الحديثة؛ بما يمكن أن يمثل _ بمشيئة الله تعالى _ نقطة التقاء بين القديم والحديث، أو بين التراث والمعاصرة.

ويمكننا أن نقف _ من خلال _ تتبع المقولات البلاغية في التراث البلاغي، ونظرات الأسلوبيين المحدثين _ على ثلاثة أنماط مهمة من التوظيف الأسلوبي والبلاغي.

الأول: الاختيار بين عدد من البدائل الصوتية.

الثاني: العدول عن الأصل السياقي الصوتي[٣٢].

الثالث: تكرار الصوت.

---

(٣٢) قيدت العدول بأنه عدول عن الأصل السياقي وذلك لأن هذا هو ما رجحه البحث بالنسبة للقاعدة التي يتم العدول عنها.

المبحث الأول

التوظيف البلاغي للتشكيل الصوتي على أساس الاختيار الأسلوبي

المقصود بالاختيار هنا هو ما يقوم به المبدع من تمييز كلامه بميزات تعبيرية خاصة تتواءم مع الحال أو المقام والسياق الذي وردت فيه سواء من حيث التشكيل الصوتي موضوع البحث، أو من حيث الوسائل التعبيرية المختلفة كالمعجم والقواعد الصرفية والنحوية والأساليب البلاغية المختلفة.

هذه الميزات التعبيرية التي يتميز بها الأسلوب إنما هي في الغالب اختيار بين عدد من البدائل أو الأشباه والنظائر اللغوية المتعددة التي تشترك فيما بينها في التعبير عن معنى واحد بطريقة متقاربة، ويقوم المبدع باختيار أكثر هذه الوسائل تحقيقا للمطابقة بينها وبين المقام(٣٣).

فعلى سبيل المثال في قوله تعالى: **"تلك إذا قسمة ضيزى"** نجد أن هذه الكلمة (ضيزى) ليس لها من انسيابية النطق وجمال الوقع على الأذن ما للكلمة المرادفة لها "جائرة" لكننا نزعم أنها في موقعها من قول الله تعالى في سورة النجم يخاطب المشركين: **﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى(٢٢)﴾** (النجم:٢١،٢٢) دالة أبلغ دلالة على المراد، وهو فساد القسمة، وحيفها بشكل يولد في النفس _ عند نطق الكلمة _ إحساسا بثقلها وبغضها، والنفور منها، وهي دلالة لا تتفجر من الكلمة السابقة.

ونؤيد ما ذكر ونتممه ببيان أوجه المناسبة بين السمات الصوتية لتلك الكلمة ودلالتها فنقول: إن الناظر في مناسبة تلك الكلمة لدلالتها لا يحتاج أكثر من أن يتأمل طريقة نطقه بها، وأن ينظر إلى هيئة الفم حال النطق لها، حيث نلاحظ أن النطق بحرف الضاد مصحوبا بحركة ياء المد يجعل الفم منفتحا بدرجة كبيرة سببها أن مخرج الضاد من حافة اللسان مما يلي الأضراس فإذا جاءت الضاد مصحوبة بالمد بالياء، فإن ذلك يؤدي إلى انفتاح الفم انفتاحا أفقيًا إلى هذه الدرجة التي هي أشبه بهيئة المشمئز من الشيء، ويزداد الاقتراب في الشبه بهذه الهيئة حينما ينتقل الفم فجأة من نطق الضاد ذات الكسرة الطويلة إلى نطق الزاي ذات الفتحة الطويلة (المد بالألف) مما يؤدي إلى انتقال الفم من الانفتاح الأفقي العرضي إلى الانفتاح الرأسي الطولي ليوحي بهذه الطريقة الإشارية المتولدة من نطق هذه الكلمة بدلالة النفور والاشمئزاز من تلك القسمة الجائرة التي تبعث على الاشمئزاز والأنفة من تلك العقول الفاسدة التي سوغت أن يكون الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا بينما هم لا يرضون بالإناث لأنفسهم فيتخلصون منهم بالقتل والوأد.

---

(٣٣) ولا يكاد يختلف ذلك في البلاغة القديمة باعتبارها (مطابقة الكلام لمقتضى الحال) عن الأسلوبية الحديثة باعتبارها تعنى بالاختيار الأسلوبي الذي يعبر عن صاحبه حتى قالوا (الأسلوب هو الرجل) يقصدون أنه يعبر عن طريقته في المنطق والتفكير كما يعبر عن شعوره كذلك، وسيأتي تفصيل ذلك وبيانه في الصفحات التالية سواء في تراثنا البلاغي أو في الدرس الأسلوبي الحديث.

ويمكننا أن نقف كذلك عند الدلالة الصوتية لكلمة "اثاقلتم" من قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ (٣٨)﴾** فالمتأمل طريقة النطق لتلك الكلمة يستشعر صعوبة واضحة في نطقها، فهي ليست خفيفة الوقع كذلك على الأذن، وذلك على خلاف ما نراه في كلمة بديلة وهي "تثاقلتم" بيد أن الأولى بتشكيلها الصوتي أقوى من الثانية في تصوير المراد والإيحاء به، إذ ترسم صورة مجسمة للتباطؤ الشديد، وتثير في خيال قارئها وسامعها صورة ذلك الجسم المتثاقل يرفعه الرافعون في جهد فيسقط من أيديهم في ثقل وحينما نوازن بين السمات الصوتية لهذه الكلمة وبين سياقها نجد أنها قد جاءت معبرة تمام التعبير عن الفكرة التي سيقت لأجلها؛ حيث نلاحظ أن حرف الثاء قد جاء مكررا وهو حرف يخرج من بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العلى فهو قريب المخرج، وتكرره بالتشديد يصور هيئة المتثاقل المتباطئ فهو لا يبرح مكانه يتردد فيه، كما أن النطق لا يزال يتردد في مخرج الثاء يكرره ولا يبرحه ثم يأتي المد ليصور لك أن هذا المتثاقل لا يتحرك ولا يمتد إلا في مكانه، فهو مَدّ خاص بهذا الحرف (الثاء) الذي لا يكاد النطق يبرحه تارة بتشديده وتكريره وتارة بمده، ثم هاهو المدّ يبلغ أقصاه حيث مخرج القاف أقصى اللسان، وهنا يظن الظانّ أن المتثاقل قد تحرك شيئا أو جاوز مكانه فإذا به يرتد تارة أخرى إلى مكانه الذي قد قام منه وهو منطقة طرف اللسان حيث الثاء واللام والتاء، بل إنه يتساقط ويتأخر عن مكان ابتدائه حيث يرتد إلى مخرج الميم عند الشفتين، ولا شك أن المرء حينما ينطق بهذه الكلمة لا يكاد يصل إلى نطق تلك الميم الساكنة، وخاصة مع إيحاء هذا المقطع الأخير (ثُم) حتى يستشعر أن شيئا قد سقط على الأرض فجأة محدثًا هذا الصوت.

وكأن النطق بهذه الكلمة يصور هيئة المتثاقل المتساقط وهو يتردد في قيامه ويتلعثم فيه ويتمادى في تباطئه وذلك في نطق الثاء المشددة الممدودة، ثم لا يلبث أن ينهض حتى يتساقط مرتدًا إلى مكان قيامه أو متجاوزا عنه إلى الخلف قليلا، فهو لا يكاد يقوم حتى يسقط وهنا نستشعر أن الكلمة بسماتها الصوتية موحية ومعبرة عن معنى التثاقل والتباطؤ بدرجة فنية عالية لا تستطيع أن توحي بها دلالتها المعجمية وحدها.

على أن في الآية كلمة أخرى لا تقل دلالتها الصوتية عن دلالة تلك الكلمة في التعبير عن ذلك التثاقل والخلود إلى الأرض والركون إلى الدعة والراحة، ألا وهي كلمة (الأرض) وذلك أنك إذا تأملت وقوفك على الضاد الساكنة بما لها من صفات الاستطالة والانبساط والتفشي لاستشعرت فيها ما يوحي به نطق الضاد من استطالة الركود والانبساط فيه، وتفشي هؤلاء المتثاقلين واسترخاؤهم وتمددهم في التصاقهم بالأرض واستنامتهم إليها.

إنها دلالة لا تلوح بها الدلالة المعجمية للكلمة، من قريب ولا من بعيد وإنما تنفرد بها الدلالة الصوتية لهذا الحرف في ذلك النسق والسياق الدلالي.

إننا في هذين المثالين السابقين نجد أن ثمة عددًا من البدائل المطروحة لكلمة (ضيزى) مثل: (جائرة _ ظالمة _ فاسدة) ومن ثم فالمبدع يختار هذه الكلمة من بين هذه الخيارات أو البدائل المطروحة التي تتيحها اللغة لكون هذه الكلمة هي أكثر مناسبة لسياقها بذلك التشكيل الصوتي الذي اشتملت عليه.

وكذلك نجد ذلك واضحا في الاختيار بين (اثاقلتم) ونظائرها من نحو: (تباطأتم _ تلكأتم _ تأخرتم _ تقاعدتم... إلخ).

وإذا كان أصل المعنى يمكن التعبير عنه بأي واحدة من هذه البدائل وتلك الخيارات المطروحة؛ فإنه يبقى بعد ذلك للصيغة المختارة تميزها من حيث المواءمة ودقة المناسبة الفنية بينها وبين السياق والمقام والمقصد .

وهذا الذي التفت إليه البلاغيون والنقاد المعاصرون من أثر التشكيل الصوتي للكلمة وما يوحي به من دلالة فنية عميقة، قد التفت إليه الدارسون للقرآن الكريم في العصر الحديث، ويأتي على رأس هؤلاء الذين التفتوا إلى هذه القيمة الفنية للأصوات **أ/ سيد قطب** في كتاباته في ظلال القرآن الكريم.

ومن أمثلة ذلك وقوفه عند كلمة (يصطرخون) في قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ**﴾ حيث يرى أن هذه الكلمة بجرسها الغليظ تصور بدقة بالغة "غلظ الصراع المتجاوب من الكفار في كل مكان، المنبعث من حناجر مكتظة بالأصوات الخشنة، كما تلقى إليك ظل الإهمال لهذا الاصطراخ الذي لا يجد من يهتم به أو يلبيه، وتلمح من وراء ذلك صورة ذلك العذاب الذي هم فيه يصطرخون".

وهذا الذي ذكره أ/ سيد قطب بين مدى القيمة الدلالية لهذه الكلمة بهذا التشكيل الصوتي بحيث لا يعبر عن تلك القيمة تشكيل آخر ولو كان من نفس مادة الكلمة _ مثل (يصرخون) فإن في الصاد والطاء بما فيها من تفخيم وإطباق يصطدم فيه اللسان بأعلى الفم عن اللثة عن نطق الطاء يعبر تمام التعبير عن حال أهل النار وهم يحاولون الخروج من تلك وهذا هو عين ما يصطرخون به {ربنا أخرجنا} فإذا بهم يجدونها مطبقة عليهم، تصطدم محاولاتهم وأصواتهم بجدرانها فترتد إليهم خائبة هذا الإطباق والاصطدام هو ما يوحي به اجتماع الصاد والطاء بما لهذا الاجتماع من سمات صوتية تشبه ذلك الحال، كما تتلاقى دلالات التفخيم في كل من الصاد والطاء والخاء لتعبر عن ضخامة الصراخ والجوار لأهل النار كما تعبر الراء بما لها من صفة التكرارية عن تكرر ذلك الصراخ واستمراريته، ويشارك في هذا حرف الواو بما له من صفة لامد والهوى إلى غاية سحيقة ليدل على طول هذا الصراخ، ثم تأتي النون في نهاية الكلمة معبرة بأنتها الحزينة عن مدى الحسرة التي يؤوب بها الكافر من هذا الصراخ الطويل الدائم العظيم الأليم.

نماذج تطبيقية للاختيار الصوتي في القرآن الكريم

سبق أن وقفنا خلال القسم النظري من البحث – عند الإيحاءات الدلالية للتشكيل الصوتي لبعض الكلمات القرآنية[٣٤].

وسوف نعرض في هذا الجزء من البحث المزيد من النماذج التطبيقية للاختيار كأساس من أسس التوظيف الأسلوبي والبلاغي للتشكيل الصوتي.

ويمكننا أن نفرق في هذه النماذج بين نوعين من الاختيار الصوتي:

الأول: اختيار الأصوات الدالة بمحاكاة الحدث.

الثاني: اختيار الأصوات التي بينها وبين الحدث نوع مناسبة وملاءمة.

أما القسم الأول: فيشمل تلك الأصوات التي يكون بينها وبين الحدث نوع من التطابق أو الجناس الصوتي لذلك الحدث، أو ما يسمى بالمحاكاة فيما سبق الإشارة إليه في القسم النظري من البحث.

حيث نلاحظ أن بين هذه الكلمات بتشكيلها الصوتي وبين ما تدل عليه من الأفعال أو الأحداث تشابه إلى حد كبير صوت الحدث أو هي حكاية له، وذلك كما في التعبير عن الصوت الخفي بالوسوسة[٣٥]، فقد سبق أن بينا أن كلمة (وسوس) بما فيها من تضعيف وتكرير لهذا المقطع (وس) الذي يشتمل على هذه الأحرف التي تصدر أصواتًا غائمة مشوشة هو أشبه شيء بهذه الوسوسة الغائمة الخفية وما يصاحب عملية الوسوسة من تكرار وإلحاح للإغواء والإغراء يحاكيه هذا التكرير والتضعيف لهذا المقطع (وس).

- ومن ذلك كلمة (كبكبوا) في قوله تعالى: **﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ**

---

(٣٤) من ذلك كلمة: (ضيزى) في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ [النجم:٢٢] وكلمة: (اثاقلتم) في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [التوبة:٣٨] وكلمة (يصطرخون) في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر:٣٧] وكلمة (ألنلزمكموها) في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود:٢٨] وكلمة (توسوس) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦] كما وقفنا عند دلالة الغنة في كلمة (أن) في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج:٦] (وانظر صـ١٧ من البحث) وقوله تعالى على لسان شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود:٨٠].

(٣٥) يقول الأستاذ سيد قطب عن سورة الناس: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)﴾ اقرأها متوالية تجد صوتك يحدث "وسوسة" كاملة تناسب جو السورة، جو وسوسة: "الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ". [التصوير الفني صـ٨٠]

يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾[٣٦].

وذلك أن الفعل (كبكب) مضعف للمقطع (كب)، فيدل ذلك على تكرار الكب وتتابعه، كما يدل على الاجتماع والتراكم والتراكب لأهل النار بعضهم فوق بعض وتتابع كبهم وإلقائهم في النار على وجوههم في دركات الجحيم المتتالية.

وهذا يأتي منسجما تمام الانسجام مع سياق الوعيد والتهديد لهؤلاء الغاوين الضالين، كما أن تكرر الباء بما فيها من قلقلة وانفجارية يأتي مناسبًا تمام المناسبة لمحاكاة تردي تلك الأفواج في النار مع محاكاة صوت الوقوع والاصطدام، ولعل الاحتكاك بين الكاف والباء وتكرره قد يشارك في تلك المحاكاة معبرًا عن احتكاك تلك الأفواج بعضها ببعض.

يحاكي هذا الفعل والحدث سواء بسواء، حيث يشعر التالي أو السامع لهذه الكلمة (كبكب) أنه يسمع صوت الكب وإلقاء الكافرين في النار وكأنه يقول (كب كب).

- ومن هذا النوع أيضًا نجد الفعل **(زحزح)** وذلك في قوله تعالى: **﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾**[٣٧].

وكذلك في قوله تعالى في وصف اليهود: **﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾**[٣٨].

حيث نلاحظ أن كلمة (زُحزح) في الآية الأولى، تحاكي عملية الزحزحة وتصورها؛ وذلك أن الزحزحة لا تتم دفعة واحدة؛ وإنما تتم على مرات متكررة ومحاولات متعددة لتحريك شيء ثقيل من مكان ثابت فيه، ولذا فإنه لا يتأتى نقله منه مرة واحدة؛ ولذا يحتال على ذلك بتحريكه شيئًا فشيئًا، وكذلك نجد أنه فعل (زحزح) مضعف المقطع (زح) يعبر بتضعيفه وتكراره عن هذا الحدث ويصوره أتم التصوير.

كما أن اختيار الفعل بهذين الحرفين (الزاي والحاء) بما يشتمل عليه الأول من الجهر، والثاني من الهمس يوحي بصوت المزيح للشيء عند إزاحته، وما يخرج منه من صوت يعبر عند شدة المعاناة، وجهد الدفع والتحريك حيث يبدأ بما يشبه الزفرة وينتهي إلى ما يشبه السكون والهمود في كلمة (زح)، ويؤكد ذلك أن هذين الحرفين هما كذلك الحرفان الأساسيان في الفعل (زاح) الذي يدخل في الحقل الدلالي نفسه الذي نحن بصدده.

---

(٣٦) الشعراء: ٩١-٩٥.

(٣٧) آل عمران:١٨٥.

(٣٨) البقرة:٩٦.

وإذا كانت الزحزحة إنما تكون عبارة عن محاولة تشتمل على المعاناة والجهد الشديد من جراء إزاحة الشيء الثقيل وتحريكه، فمن هنا تأتي مناسبة هذه الكلمة (زُحزح) للتعبير عن مدى صعوبة الأمر في الخلاص من النار.

وأمر آخر أن الزحزحة إنما تكون عبارة عن تحريك يسير ونقلة دقيقة لمسافة قصيرة جدًا للجسم المحرّك أو المزحزح بحيث لا تكاد تحس، حيث تصدق الزحزحة بحدوث أدنى مباينة للنقطة التي كان يرتكز فيها الجسم المزحزح.

ومن هنا تأتي مناسبة هذه اللفظة من جهة أخرى وهي أنها تعبر بهذا التشكيل الصوتي لتكرار المقطع (زح) أن تحقق الفوز والسعادة إنما يكون بمجرد الابتعاد لأدنى مسافة من النار، فهذا لا محالة فوز عظيم لا يكاد يقدر لمن عاين أهوال ذلك اليوم، ولمن رأوا النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفًا.

- ومن ذلك كلمة (يُدَعُّونَ) في قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا**﴾[٣٩].

فهذه الكلمة بما تشتمل عليه من حروف مادة (دعّ) مضعفة العين تجانس صوت الدعّ والدفع، وكأنها حكاية لصوت المدفوع دفعًا شديدًا حيث يقول (أع – أع).

ولما كان هذان الحرفان بمثابة حكاية الدفع أو المدفوع اشتملت عليهما كذلك مادة (دفع)، غير أن دخول الفاء المهموسة الرقيقة في (دفع) خفف من حدَّة هذا الدفع وشدته.

ولما كان (الدَّع) أقوى من (الدفع) جرسًا ومعنى لذا آثرت الآية التعبير بالدَّعِّ دون الدفع، وهنا يظهر أثر الاختيار حيث تتضح مزية الكلمة المختارة على بدائلها المتاحة التي تشترك معها في حقل دلالي واحد كما تتضح القيمة الخلافية للحرف كقيمة فارقة بين الدلالات المعجمية.

- ويمكن أن نعد من هذا الباب أيضا تلك المجانسة الصوتية بين أسماء القيامة وأهوالها فالكلمات مثل: (الطامّة – الصاخّة – القارعة) تجانس إلى حد كبير تلك الأصوات التي تكون في ذلك اليوم من أثر انفطار عقد الكون وارتطام أجزائه بعضها ببعض، وقرع بعضها بعضا، فضلاً عن صوت النفخة التي تصخ الآذان، أو تصمّها، ولذا فليس هناك حكاية لها أنسب من لفظة الصاخة.

كما نكاد نحس في الطامة حكاية ارتطام وأصوات شيء تتحطم وكأنها تقول (طم – طم).

ونكاد نحس في القارعة أصوات أشياء تقرع وتتقعقع وكأنها تقول (قع – قع).

كذلك لا يخفى ما في هذه الأحرف (الطاء والصاد والخاء والقاف والعين) من انطباق واستعلاء وتفخيم يزيد من مناسبتها ومجانستها لما تمثله من هذه الأحداث

---

(٣٩) سورة الطور:١٣.

العظيمة، وكذلك اشتمال كل من الطامّة والصاخّة على حروف المد المنتهية بالتشديد الذي يزيد هذه الألفاظ حدة بما يحدثه ذلك المد من التهويل، وما يحدثه ذلك التشديد والنبر والارتكاز من تأثير في النفوس ووقفة وإلحاح على الانتباه والالتفات إلى ذلك الجرس وما يمثله من الإيحاءات والظلال.

- ومن ذلك أيضا لفظ (أفٍّ) في قوله تعالى: ﴿**إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلا كَرِيمًا**﴾[٤٠].

فإن هذه الكلمة (أفٍّ) هي محاكاة صوتية تامة لفعل المتأفف وصوته حيث يقول لما يكرهه ويثقل عليه (أف).

- وكذلك كلمة (يا ويلتى) في قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا (٢٧) يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلا**﴾[٤١]. فهذه الكلمة (يا ويلتى) بانتهائها بمد التاء المفتوحة بالألف تحاكي تمامًا صوت العويل لمن يصرخ ويندب. وكذلك كل حروف (الندبة) في اللغة العربية إنما تحاكي صوت النادب وفعله سواء بسواء، ومنها ياء الندبة في هذه الكلمة (يا ويلتى) وفي كلمة (يا ليتني) وغيرها كثير.
- ومن ذلك أيضا: قوله تعالى في سورة الحاقة على لسان الذي يؤتى كتابة بشماله: ﴿**وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ**﴾[٤٢].
- ومن الأمثلة كذلك في سورة الحاقة قوله تعالى على لسان المؤمن الذي يؤتى كتابه بيمينه: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ**﴾[٤٣].

فكلمة (هاؤم) بمد الهاء تعبر تماما عن صوت الفرح المستبشر وهي حكاية تامّة ومباشرة لفعله فإن الفرح المستبشر إنما يرفع صوته ويقول: (ها)، وهذا الذي أُتي كتابه بيمينه ليس أحد أشد فرحة منه، فهو يرفع صوته منبها أهل المحشر جميعًا أن ينظروا إليه ليروا فوزه وسعادته فيقول موظفًا حرف التنبيه (ها) هذا التوظيف الصوتي الرائع لحكاية فرحته (هاؤم).

القسم الثاني: اختيار الأصوات التي بينها وبين الحدث نوع مناسبة وملاءمة.

الفارق بين هذا النوع والنوع الأول أن النوع الأول يكاد يكون حكاية تامّة لصوت الحدث، وذلك كما نقول (كاك) لصوت البط، أو (هوهو) حكاية لصوت الكلب.

---

(٤٠) الإسراء:٢٣.

(٤١) الفرقان:٢٨،٢٧.

(٤٢) الحاقة:٢٥.

(٤٣) الحاقة:١٩.

وفي العربية من ذلك الشيء الكثير كقولهم (بسبس)، و(طقطق)، وتسميتهم صوت الماء بالخرير، وصوت القط بالمواء ونحو ذلك.

أما النوع الثاني الذي نحن بصدده الآن فهو ما ليس حكاية لصوت الحدث، أو نقلاً له، ولكن فيه نوع من المناسبة والملاءمة للمعنى المعبر عنه سواء كان حدثًا له صوت أو ليس له صوت.

وهذا النوع الأخير _ هو في رأيي_ أكثر فنية من الأول؛ فإن النوع الأول على ملاحته وموسيقاه الناشئة من مجانسة صوت الحدث؛ فإنه يكاد يكون نقلاً مباشرًا للحدث كما هو، وكأن واضع العربية قد أعياه أو أعجزه أن يجد لفظًا يعبر به عن ذلك الحدث فنقله بهيأته وصورته كما هو، وحكاه بلفظه.

وذلك كالذي يتحدث بلغة لا يلم بكل ألفاظها فيعوزه التعبير عن بعض مدلولاتها في بعض الأحيان فيستعيض عن اللفظ الدال بإيراد المدلول نفسه ويضمنه كلامه بالإشارة إليه؛ كأن يريد أن يقول (قلم) ولا يعرف اللفظ الدال عليه، فيمسك بالقلم ويشير إليه.

غير أن هذا وإن كان مستقبحًا هنا لدلالته على الجهل باللغة؛ فإنه غير مستقبح من واضع اللغة في التعبير بحكاية الصوت لأنه جعل القاعدة عنده أن تكون الأصوات مطابقة للأحداث ما أمكن، فكلما أمكن الإتيان بصوت مطابق للحدث لم يجز العدول عنه إلى غيره، لأنه رأى الصوت المطابق يكون أدل على المقصود من غيره، والمطلوب هو الإبانة والدلالة على أكمل وجه، ومن هنا كانت تلك الألفاظ الحاكية لمدلولاتها هي أبلغ وأفصح في الاختيار من غيرها التي لا تحاكي ذلك الحدث.

ومن ثم فإن مفاضلتنا هنا ليست بين تلك الألفاظ وبدائلها في سياقاتها؛ وإنما نحن نفاضل بين صنيع الواضع في هذا النوع المحاكي أو المجانس، وصنيعه في النوع الثاني المناسب والملائم، فنقول: إن صنيعه في الثاني أدق وألطف لأنه في هذا المقام ليس هو بإزاء أحداث تحاكي أصواتها، وإنما هو بإزاء معان يختلف واديها عن وادي الأصوات والألفاظ حيث إنها لا جرس لها ولا صوت في الغالب فكان تمثيلها بالأصوات ومحاولة وضع صوت مناسب لها أدق وألطف، وهذا هو المقصود من أن هذا النوع أكثر فنيَّة من الأول، وبالأمثلة يتضح المقصود – إن شاء الله تعالى.

فمن ذلك النوع ما سبق التمثيل به في القسم النظري من البحث من ألفاظ (ضيزى – اثاقلتم – أنلزمكموها ....إلخ).

. وهذا النوع يمكن أن نقسمه قسمين:

القسم الأول: هو ما كانت المناسبة بينه وبين المعاني الدال عليها من جهة محاكاة الناطق بهيئة نطقه صورة الفعل أو الحدث، ويمكن أن نسمي هذا النوع:

المحاكاة بهيئة الناطق:

والفرق بينه وبين النوع الأول: أن النوع الأول إنما هو محاكاة بالصوت والجرس لصوت الفعل أو الحدث.

أما هذا النوع فهو محاكاة بالفعل _لا بالصوت _ لصورة الفعل وهيئته لا لجرسه وصوته.

ففي هذا النوع تتم المحاكاة بهيئة أعضاء النطق وكيفية تحريكها عند النطق بالكلمة ما بين فتح وضم وكسر، وانفتاح للفم أو إغلاق له، أو انطباقه واستعلائه وغير ذلك.

ويمكننا أن نمثل لهذا النوع بما يحدث عند أمر الولد الصغير بالسكوت مثلا حيث يضم أحدنا شفتيه ويضع إصبعه عليها قائلا لولده (هش) أي اسكت، فهو يعبر بضم الشفتين ووضع الإصبع عليها على هيئة المحذر، أو هيئة الساكت المغلق لفمه.

وذلك أن واضع اللغة كما قلنا كأنه جعل القاعدة لديه تمام المطابقة للمدلول فما تمكن من مطابقته بالصوت أتى به، وهذا هو النوع الأول، وما لم يتمكن فيه من المطابقة بالصوت احتال له بنوع مطابقة بالفعل بهيئة النطق ليحدث نوعا من المناسبة والملاءمة بين الدال والمدلول تزيد في الإعانة على الدلالة والبيان.

وبالأمثلة يتضح المقصود من هذا النوع إن شاء الله تعالى:

فمن ذلك النوع في القرآن ما سبق التمثيل به من كلمة (ضيزى) في قوله تعالى: ﴿**تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى**﴾[٤٤] فقد قلنا إن هيئة الناطق بهذه الكلمة تعبر عن النفور والاشمئزاز عند النطق بها، ولذا آثر القرآن التعبير بهذه الكلمة عن بديلتها (جائرة).

ومن ذلك أيضًا فيما سبق التمثيل به كلمة (أنَّ) في قوله تعالى على لسان لوط عليه السلام حينما راوده قومه عن أضيافه: ﴿**قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ**﴾[٤٥].

حيث قلنا إن النطق بكلمة (أنَّ) في هذا الموضع يصاحبه ضغط المتكلم على أسنانه بحيث يبدو في هيئة المتغيظ، وهذا يحاكي حقيقة الأمر من تغيظ لوط عليه السلام من حال قومه وتماديهم في ركوب الفاحشة مع عدم قدرته على مجابهتهم وكفهم.

وسيأتي مزيد إيضاح لهذا النوع في المبحث الخاص بالعدول، حيث يقوم المبدع بالعدول عن القاعدة اللغوية الثابتة أو الشائعة لأجل الإتيان بلفظ يحاكي بهيئة النطق فيه، معنى يقتضيه السياق أو المقام، وذلك كما في فك الإدغام في كلمة

---

(٤٤) النجم:٢٢.

(٤٥) هود:٨٠.

(يحببكم) في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٤٦).

وكما في كلمة (سأقيها) بالهمز في قراءة من قرأ: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾(٤٧).

القسم الثاني من هذا النوع:

أما القسم الثاني من هذا النوع وهو ما تحدث فيه المناسبة بين أصوات الكلمة ومدلولها لا من جهة المحاكاة بالصوت، ولا من جهة المحاكاة بهيئة الناطق، ولكن من جهة مناسبة ألطف وأدق مما سبق.

وهذا النوع يدق في النظر حيث يشتمل على مناسبة ظاهرة ملموسة بينه وبين مدلوله، وهذا النوع هو الذي تظهر فيه براعة الواضع بصورة أكبر، ويحتاج للوقوف عليه إلى حسٍّ مرهف وذوق عربي أصيل.

فالمناسبة في المحاكاة بالصوت ظاهرة جدًّا كما في (وسوس) وهي أظهر الأنواع.

يليها في الظهور ما كانت المناسبة فيه بالمحاكاة بهيئة الناطق كما في (ضيزى).

أما المناسبة في هذا النوع الذي نحن بصدده فتحتاج إلى قدر كبير من التأمل، كما في الأمثلة التي سبق التمثيل بها من نحو (اثّاقلتم(٤٨) – أنلزمكموها(٤٩)).

حيث بينا أن هناك مناسبة دقيقة بين هاتين الكلمتين ومدلوليها، حيث إن التشديد والمد المنتهي بالسكون في (اثّاقلتم) يشبه هيئة المتثاقل الذي كلما قام قعد وأخلد إلى الأرض والسكون والدّعة.

كما أن كلمة (أنلزمكموها) بتراكبها وثقلها في النطق تأتي مناسبة جدًّا لثقل التكاليف التي يُلزم بها الكافرون وهم لها كارهون.

ويلاحظ أن الفارق دقيق بين هذا النوع وسابقه، فالمناسبة هنا ليست من جهة المحاكاة بالصوت، فليس هناك صوت للحدث المعبر عنه، كما أنها ليست محاكاة

---

(٤٦) آل عمران:٣١. وسيأتي الحديث عنها تفصيلا في مبحث العدول.

(٤٧) النمل:٤٤. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (٨/ ٦١٩) "قوله: {سَاقَيْهَا} العامَّةُ على ألفٍ صريحةٍ. وقنبل روى همزَها عن ابن كثير. وضَعَّفها أبو عليّ." وسيأتي بيان النكتة فيها في مبحث العدول.

(٤٨) الكلمة وردت في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [التوبة:٣٨].

(٤٩) الكلمة وردت في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود:٢٨].

بهيئة الناطق، لأن هيئة الناطق في (اثاقلتم) أو (أنلزمكموها) لا تشتمل على إشارة تدل على التثاقل أو الإلزام كما في (ضيزى) حيث اشتملت على إشارة واضحة لهيئة (المشمئز) فساعدت على معنى التنفير من الجور.

أما هنا فالمناسبة إنما هي بين التشكيل الصوتي للكلمة وما تشتمل عليه من مدّ أو تشديد أو سكون، أو تراكب للحروف، أو تقارب أو تباعد في المخارج، أو سهولة وسلاسة في النطق، أو تعثر فيه.

ومن ذلك النوع: كلمة (ليبطئن) في قوله تعالى: ﴿**يأيها الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا (٧١) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا**﴾ [٥٠]. حيث نلاحظ أننا نتعثر ونتباطأ في النطق بهذه الكلمة تعثرًا يشبه ويحاكي تعثر المتباطئ إلى حدٍّ كبير، حيث ينتقل الفم في النطق بها من الضم في الياء إلى الفتح في الباء، إلى الكسر في الطاء الثقيلة ثم يعاود الفتح مرة أخرى، وهذا التنقل بين الحركات والحروف المتقاربة في المخرج يؤدي إلى نوع من الثقل في النطق بها يشبه ثقل المتباطئ ويحاكيه[٥١].

ومن ذلك أيضًا كلمة (زلزلت) في قوله تعالى: ﴿**إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا**﴾[٥٢].

فإن هذه الكلمة (زلزلت) تحاكي حركة الزلزلة بما فيها من هز وتحريك متتابع يقتضي التكرار لهذه العملية، وكذلك يأتي الفعل (زلزل) مكرر المقطع (زلّ) ليصور ذلك الحدث ويحاكيه بتركيبه الصوتي.

نلاحظ في المثالين السابقين أن المحاكاة أو المناسبة بين الكلمة ومدلولها ليست محاكاة بالصوت، ولا بهيئة النطق وإنما هي محاكاة من جهة أن التركيب الصوتي للكلمة (زلزل) بما فيها من تكرار وتتابع يحاكي بصورة تركيبه لا بجرسه ولا بهيئة نطقه – حدث الزلزلة بما فيه من تكرار وتتابع، وذلك لأن الزلزلة ليس لها صوت يحاكى، وإنما لها صورة وهي الاهتزاز والتتابع؛ فمن ثم وقع التناسب بين صورة اللفظ وصورة الفعل، كما أن كلمة (ليبطئن) تحاكي بتعثر النطق بها هيئة المتعثر المتباطئ، وتلك المحاكاة ليست بالصوت، ولا بهيئة النطق حيث لا يظهر على أعضاء النطق عند النطق بهذه الكلمة هيئة معينة تشابه هيئة التباطؤ، وإنما جاءت المحاكاة من المناسبة بين الثقل المصاحب للنطق بها، والثقل الذي يكون عليه المتباطئ.

---

(٥٠) النساء: ٧١-٧٢.

(٥١) للأستاذ سيد قطب في هذا الموضع كلام جيد حيث قال: "ترتسم صورة التبطئة في جرس العبارة كلها _ وفي جرس (ليبطئن) خاصة _ وإن اللسان ليكاد يتعثر، وهو يتخبط فيها، حتى يصل ببطء إلى نهايتها" [التصوير الفني صـ٧٨].

(٥٢) سورة الزلزلة: ١.

- ومن الأمثلة على ذلك التناسب أيضا في هذا النوع قوله تعالى: ﴿**وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ**﴾[٥٣].

حيث نلاحظ مناسبة واضحة بين هذه الكلمة (عسعس) وبين المعنى الذي تدل عليه وهو إقبال الليل، أو إدباره[٥٤].

وذلك أننا عند نطق هذا اللفظ (عسعس) نكاد نحس همس الليل، وخفوت ضوء النهار، وهدأة الكون، وهذا يحدث في كلا الحالتين عند إقبال الليل وعند إدباره.

وإذا كان تكرار حرف السين بما يشتمل عليه من همس ورقة يتناسب مع إدبار الليل وهمسه، فإننا نجد أن كلمة (تنفس) في التعبير عن إقبال الصبح وإشراقه قد أخذت نصيبها من همس السين ورقته المناسبة للطافة الصبح ورقته، غير أن هذا الحرف لم يتكرر، وإنما اشتملت الكلمة على أحرف أخرى متحركة بالفتح متقاربة المخارج تضفي على جو طلوع الصبح وميلاده نوعا من الحركة والحياة التي نشعر بتدرجها شيئًا فشيئًا مع توالي هذه الحروف والحركات، وكأنها تكاد تحاكي ميلاد هذا الصبح الجديد.

- ولو تأملنا كذلك كلمة (يغشيكم) في قوله تعالى: ﴿**إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ**﴾[٥٥].

نجد أن في قوله تعالى (يغشيكم النعاس) استعارة مكنية شبه النعاس بغطاء، والله تعالى يغشيهم به، واستعار لفظ (التغشية) ليصور النعاس في صورة شيء حسي يغشيهم الله تعالى به رحمة منه أشد رحمة من الوالد الحنون بولده – ولله المثل الأعلى – إذ يغطيه شفقة منه عليه.

يأتي التشكيل الصوتي لهذه الكلمة (يغشيكم) متناسبًا تمام المناسبة مع هذا المعنى حيث يتميز حرف الشين المضعف في هذه الكلمة بما له من تفش واستطالة تكاد تنفرد بمحاكاة تصوير التغشية بالشيء، بل لا يبعد إذا قلنا إن هذا الحرف كان له مشاركة كبيرة بالإيحاء بتلك الصورة البديعة.

- هذا الإيحاء نجده كذلك في كلمة (تغشاها) في قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ**

---

(٥٣) التكوير:١٧-١٨.

(٥٤) قال ابن جرير الطبري: أن المراد بقوله: ﴿إذا عسعس﴾ إذا أدبر، وقال ابن كثير: "وعندي أن المراد بقوله: ﴿عسعس﴾: إذا أقبل، وإن كان يصح استعماله في الإدبار، لكن الإقبال هاهنا أنسب، كأنه أقسم تعالى بالليل وظلامه إذا أقبل، وبالفجر وضيائه إذا أشرق، كما قال: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾، وقال: ﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾، وقال: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾، وغير ذلك من الآيات.

(٥٥) الأنفال:١١.

حَمْلا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[٥٦].

فكلمة (تغشاها) بتشكيلها الصوتي القريب من كلمة (يغشيكم) السابقة يوحي كذلك بصورة تلك التغشية.

- وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾[٥٧] حيث نلمح كذلك إيحاء الشين المضعفة بتفشيها واستطالتها بتصوير العذاب بشيء مادي كثيف يغشى تلك القرى المؤتفكة.

ولما كانت تغشية الليل للكون تأتي رقيقة متدرجة لذلك أوثرت كلمة (يغشى) دون تضعيف للشين لكي تخفف الآية من الإيحاء بكثافة تلك التغشية وتصور أنها رقيقة لطيفة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ بينما نجد التعبير عن انجلاء النهار ووضوحه وتجليه للعيان بقوله تعالى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ فتستشعر عند النطق بكلمة (تجلى) بما تشتمل عليه من جهر وانفجارية واضحة في حرف الجيم المعبر تمام التعبير عن الجهارة والوضوح الذي يتميز به النهار، ويزيد في الإيحاء بهذه الدلالة مجيء حرف اللام مضعفًا بما يتميز به من الجهر والوضوح كذلك.

- وكذلك نجد هاتين الكلمتين الرقيقتين (أمنة منه) في هذا السياق السابق (إذ يغشيكم النعاس أمنة منه) حيث تفيض الكلمتان رقة وأمنًا وحنانًا ودعة بما لتلك الحروف الرقيقة القريبة المخرج ذات الغنة الرخيمة من رقة صوتية تكاد تشبه ذلك الصوت الذي تحدثه الأم عند تنويم طفلها في دعة ورقة حانية.

ظاهرة المدود القرآنية:

ومن الاختيارات الصوتية التي تكاد تمثل ظاهرة قرآنية فريدة، ظاهرة اختيار الكلمات ذات المدود الصوتية سواء ما يسمى بالمدود الطبيعية في حروف المد الثلاثة؛ حيث تمد هذه الأحرف بمقدار حركتين، أو المدود الزائدة على المد الطبيعي حيث تمد هذه الأحرف الثلاثة مدًا زائدًا يتراوح بين أربع وست حركات بالشروط التي بينها علماء القراءات.

ونستطيع أن نلمح تناسبا واضحا بين الكلمات التي اشتملت على تلك المدود وبين المعاني السياقية التي جاء المد متآزرًا معها فمن أمثلة ذلك:

---

(٥٦) الأعراف:١٨٩.

(٥٧) النجم: ٥٣-٥٤ .

(١) قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[٥٨].

(٢) وقوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[٥٩].

(٣)وقوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[٦٠].

ففي هذه الأمثلة نلاحظ تناسبا بين هذه المدود وما صاحبها من معاني النداء، فهي تحاكي أو تجانس النداء وما يصاحبه من رفع للصوت.

ومن ذلك لفظ (آمِّين) في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾[٦١].

حيث نلاحظ أن المد اللازم المثقل في همزة (آمِّين) يتناسب تناسبًا تامًا مع هيئة قاصدي البيت الحرام الذين يتجهون نحوه لا يلوون على شيء، فالمد هنا يوحي بدوام التوجه والقصد.

وكذلك مدّ (الضالين) في قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾[٦٢] أو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾[٦٣] فإنها في مثل هذه السياقات إنما تتآزر مع دلالة التمادي والضلال والثبوت عليه.

كذلك فقد وقفنا قبل عند دلالة المد في كلمتي (الطامّة) و(الصاخّة) ونحوها من ألفاظ القيامة وكيف أنها تتآزر مع دلالتها على طول هذا اليوم وتماديها في الفظاعة والروع.

---

(٥٨) الأعراف:٤٤.

(٥٩) الأعراف:٤٨.

(٦٠) الأعراف:٥٠.

(٦١) المائدة: ٢.

(٦٢) الفاتحة: ٧.

(٦٣) الواقعة: ٥١.

ومن المواضع الطريفة هنا ذلك المد الدال على قوَّة المحاجَّة وطولها ، وذلك في محاجة إبراهيم عليه السلام لقومه ، ومحاجة قومه له ، قال تعالى : وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣)

حيث نلاحظ استعمال الكلمة ذات المد اللازم (٦ حركات)في التعبير عن محاجة قوم إبراهيم – عليه السلام – له ، لبيان طول محاجتهم ، وقوة لجاجتهم ، وفي المقابل : طول محاجة إبراهيم – عليه السلام – وقوة محاجته بصورة أكبر على نحو ما بينت الآيات ، وأسهمت المفردة القرآنية (أتحاجوني)بتشكيلها الصوتي في ذلك.

المبحث الثاني

التوظيف الأسلوبي البلاغي للتشكيل الصوتي على أساس العدول

ثمة أساس آخر للتوظيف الأسلوبي والبلاغي للتشكيل الصوتي نستطيع أن نلمح وقوف البلاغيين عليه واعتماده لديهم أساسا للكشف عن الدور البلاغي للأصوات وهذا الأساس الثاني هو ما أطلق عليه في تراثنا البلاغي مصطلح العدول. فإذا كانت البلاغة ترجع في سائر تعريفات البلاغيين التي سبق ذكرها إلى حسن تخير اللفظ، فإنه مما يجدر بنا التنبيه إليه أن هذا التخير أو الاختيار للفظ يمثل في غالب الأحيان أنواعا من العدول.

فالاختيار في حقيقته إنما هو عدول عن المستوى النمطي أو العادي من اللغة إلى المستوى الفني من الكلام وقد يمثل تخير اللفظ نوعا من العدول عن النظام اللغوي أو عن الاستخدام الشائع، أو عدولا داخليا وهو ما يسميه ريفاتير بالعدول السياقي، وذلك فيما سوف نبينه قريبا عنه.

وقد نبهنا في حديثنا السابق عن الاختيار إلى وقوف نقادنا القدامى على مستويين متمايزين من الأداء اللغوي:

الأول: هو المستوى النمطي.

الثاني: هو المستوى الفني أو البلاغي.

هذا التفريق الواضح بين مستويي اللغة الذي عنى ببيانه والوقوف عليه نقادنا القدامى هو ما تهتم الدراسات الأسلوبية بالوقوف عليه.

فهذا الواقع اللغوي يعد بمثابة (الأصل)، وهو ما تهتم تلك الدراسات برصد عملية الخروج عنه لواقع طارئ من شأنه أن يعيننا على تدبر أبعاده الدلالية والأصولية[٦٤].

وفي الحقيقة أن النظرة إلى العدول على أنه عدول عن المستوى النمطي إلى المستوى الفني نظرة لا تكاد تفرق بينه وبين الاختيار؛ أما العدول الجدير بإفراده بمصطلح خاص يميزه عن الاختيار وإن كان يشترك مع الاختيار في كونه انتقاء للفظ وإيثارًا له على غيره هذا العدول هو ما كان يمثل في رأيي نوعا من العدول عن النظام أو الأصل اللغوي أو نوعا من العدول عن سياق النص وهو ما عرف في التراث اللغوي والبلاغي بالمجاز[٦٥]والنقل، والانتقال، والتحريف، والانحراف، والرجوع، والالتفات، والعدول، والصرف، والانصراف، والتلون، ومخالفة مقتضى

---

(٦٤) المسدى/ الأسلوبية/ ص ٩٤.

(٦٥) المجاز هنا هو مصطلح أبي قتيبة في كتابه تأويل مشكل القرآن وهو أوسع من الدلالة التي استقر عليها مصطلح المجاز في الدراسات البلاغية.

الظاهر، وشجاعة العربية، والحمل على المعنى، والترك، ونقض العادة، وغير ذلك[٦٦].

ومما هو غني عن البيان أن نبين أن هؤلاء البلاغيين واللغويين كانوا يستخدمون هذه المصطلحات للعدول والنقل سواء كان في باب الأصوات أم في غيره من أنظمة اللغة، غير أن تلك المصطلحات كانت شاملة لديهم لذلك العدول الصوتي، وهذا هو ما يعنينا في هذا البحث.

هذا العدول قد عبر عنه في الدراسات الحديثة بمصطلحات عديدة كذلك، منها: الانحراف، والانزياح، والاختلال، والانتهاك، والتجاوز، والمخالفة، واللحن، وخرق السنن، والشناعة، والاطاحة، التحريف...إلخ[٦٧] فإذا كان النظر إلى الأسلوب من زاوية المنشئ قد أثمر مقولة الاختيار، فإن النظر إليه من زاوية النص أو الرسالة قد أثمر مقولة العدول أو ما أسموه بمصطلحات عديدة لعل أبرزها، مصطلح الانحراف[٦٨]؛ إذ يعتمد تعريف الأسلوب بالنظر إلى النص على أنه نوع من الخطاب الأدبي المغاير للخطاب العادي... وقد يكسر القواعد اللغوية الموضوعة أو يخرج عن النمط المألوف للغة، أو يبتكر صيغا وأساليب جديدة، أو يستبدل تعبيرات جديدة ليست شائعة بأخرى قديمة، أو يقيم نوعا من الترابط بين لفظين أو أكثر، أو يستخدم لفظا في غير ما وضع له. هذا الخروج على الاستعمال العادي للغة يطلق عليه الأسلوبيون وعلماء اللسانيات عدة مصطلحات لعل أبرزها الانحراف[٦٩] ومن ثم فقد وصف هذا الاتجاه الأسلوب بأنه انحراف عن قاعدة ما[٧٠] أو "بأنه انحراف عن

---

(٦٦) انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ٩/١، البديع لابن المعتز ص ٥٨/٥٩، البرهان في وجوه البيان لابن وهب الكاتب ص ١٥٣، الفروق لأبي هلال العسكري ص١٩٠، إعجاز القرآن للباقلاني ص ٢٧٣، ٢٧٤ المثل السائر لضياء الدين بن الأثير ٢٤٦/٢،٢٤١،١٦٩،١٦٧ جوهر الكنز نجم الدين بن الأثير ص ١١٨-١١٨، الكشاف للزمخشري ١٨٦/٢، ٢٠/٣، مفتاح العلوم للسكاكي ص ١٠٦ (المطبعة الأدبية)، الإيضاح للخطيب القزويني ص ١٥٧ (بتعليق د/ محمد خفاجي)، الطراز ليحي العلوي ١٣١/٢-١٣٢-١٣٥-١٣٦-١٣٧، التبيان للطيبي ٣٤٧/٢ بتحقيق/ د. عبد الحميد هنداوي ط المكتبة التجارية بمكة، شروح التلخيص ٤٦٣/١-٤٦٧ الخصائص لابن جني ٢١٤/١-٢١٥ ٤١١، ١٨٨/٣ ٢٦٧، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها د/ أحمد مطلوب ص ٢٩٦.

(٦٧) انظر المسدي _ الأسلوبية ص ٩٤.

(٦٨) اخترت التعبير عن هذه الظاهرة بلفظ العدول لأمور: أولها: أن هذا التعبير هو اختيار أغلب البلاغيين القدماء كما سبق أن أوردنا. ثانيها: أنه أدق في التعبير عن الظاهرة ووصفها. ثالثها: أن لفظة الانحراف تشمل إيحاءات إضافية قد لا تناسب الظاهرة ولعل أهم هذه الإيحاءات هو إيحاء الخطأ وهو غير وارد في مصطلح العدول. وانظر د/ محمد عبد المطلب/ بناء الأسلوب في شعر الحداثة التكوين البديعي ص ٣٢٤، وانظر له أيضا البلاغة والأسلوبية ط الهيئة ١٩٨٤ ص ١٩٨.

(٦٩) د/ فتح الله سليمان / الأسلوبية ص ١٩.

(٧٠) د/ صلاح فضل علم الأسلوب ص ١٧٩.

المعيار الموجود أو بأنه: "خروج عن القاعدة اللغوية" أو بأنه "شكل منحرف عن المعيار"[٧١]

كذلك فقد تردد مصطلح العدول في التراث البلاغي القديم باعتباره عدولاً عن القاعدة اللغوية العامة، أو عن السياق، أو غير ذلك مما اختلف فيه نظرة الأسلوبيين المحدثين.

فعلى سبيل المثال نجد تعبير أبي هلال العسكري بمصطلح العدول للدلالة على الخروج على الأصل اللغوي وذلك في مثل مفاضلة بين (الرحيم) و(الرحمن) حيث يقول "فإن (الرحيم) مبالغة لعدوله، وإن (الرحمن) أشد مبالغة لأنه أشد عدولا"[٧٢] والذي يعنينا هنا هو استخدام أبي هلال لمصطلح العدول واتخاذه أساسا يقاس عليه تحقيق المبالغة المطلوبة التي يقتضيها المقام.

ومعنى ذلك أنه يلفتنا إلى أساس ثان غير الاختيار يمكن اعتماده في التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة.

نجد هذا الملمح كذلك عند الباقلاني ت ٤٠٣ هـ حيث يرى كذلك أن (رحمن عدل عن راحم للمبالغة)[٧٣] فيذهب إلى نحو ما ذهب إليه أبو هلال آنفا.

والذي أراه أن العدول الذي ذكره كل من أبي هلال والباقلاني في هذا الموضوع إنما هو بالنظر إلى الصيغة[٧٤] في ذاتها أي في حالة الإفراد لا في حالة التركيب، أي أن المقارنة إنما تمت بين كل من (راحم ورحمن ورحيم) خارج سياقات الكلام، وعلى هذا تم الخروج بهذه القاعدة أن رحيم عدل بها راحم فهي أبلغ منها، ورحمان أشد عدولا فيه أشد مبالغة.

وليس المقصود أنه عدل في هذا الموضوع أو هذا السياق عن راحم أو رحمن، إذ إنه ليست هناك قرينة توجب كون أصل التعبير في هذا السياق باسم الفاعل راحم ثم عدل عنه إلى زيادة المبنى ونقصانه إنما تترتب على زيادة المعنى ونقصانه، لا على أن الأصل هو عدم الزيادة.

والذي يبدو أن مصطلح العدول قد وظف هنا بمعنى إيثار صيغة دون أخرى، وهذا يدلنا على أنه كان يخلط بينه وبين المعنى الدقيق للاختيار أحيانا.

---

(٧١) برند شبلنر علم اللغة ص ٦١.

(٧٢) مجاز القرآن ج١٥١/٢.

(٧٣) انظر السابق ص ٩ وانظر الكامل ٢٢/٣، ٥٦/٢.

(٧٤) لا يخفى أهمية رصد الاختيار أو العدول الأسلوبي في جانب الصيغ لماله من أثر كبير في التشكيل الصوتي لبنية الكلمة وتحويلاتها الصرفية المختلفة التي تؤدي بدورها إلى العديد من التشكيلات الصوتية التي تقع في إطار البحث.

أما الزمخشري ت ٥٣٨ هـ فقد جرى نظريا على نهج ابن المعتز في قصر ظاهرة الالتفات على المخالفة بين الضمائر[٧٥] وتبعه على ذلك السكاكي في مفتاحه، إلا أن الزمخشري قد التفت في تطبيقاته القرآنية إلى ظاهرة العدول في الصيغ وإن لم يسمها بمصطلح الالتفات الذي قصره على مدلول المخالفة بين الضمائر.

وقد كان للزمخشري النصيب الأعظم في هذا الباب وتبعه على هذا النهج كافة من جاء بعده من المفسرين حتى إن بعضهم لا يزيد في كثير من المواضع على أن يحكي عبارة الزمخشري في بيان ما اشتملت عليه الآية من اختيار أو عدول في جانب الصيغ، والحق أنه ما أبلى أحد في هذا الأمر ما أبلا ضياء الدين بن الأثير ت ٦٣٧ هـ في كتابه "المثل السائر" من كلامه فيم سماه تارة بالعدول، وتارة بالنقل أو الانتقال وذلك في الفصل الذي عقده بعنوان"قوة اللفظ لقوة المعنى"[٧٦].

---

(٧٥) الكشاف ١٠/١.

(٧٦) المثل السائر ٢٤١/٢-٢٤٧ انظر الفصل الخاص بين الصيغة والمعنى في الباب الأول من الرسالة.

نماذج تطبيقية للعدول الصوتي في القرآن الكريم

إذا ارتضينا اعتبار شيوع الظاهرة في نص ما هو القاعدة التي يتم العدول عنها؛ فإننا نستطيع أن نقرر أنه قد تم العدول الصوتي عن القاعدة الصوتية الشائعة في القرآن الكريم _على سبيل المثال _ في عدد من المواضع لأغراض فنية، نحاول الكشف عنها في بعض ما نعرض من الأمثلة.

فمن المواضع العجيبة التي تمثل عدولا صوتيا عن السياق القرآن لفظ (مجراها) بإمالة الألف لتكون قريبة في نطقها من الياء، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١)﴾ (هود:٤١).

حيث نلاحظ أن هذه اللفظة (مجراها) هي اللفظة الوحيدة في السياق القرآن كله في قراءة حفص التي تتسم بهذه السمة الصوتية (سمة الإمالة).

وحينما نتأمل سياق الآية نشعر مدى مناسبة هذه اللفظة لجوها السياقي؛ فالأمر بركوب السفينة هنا متجه إلى هؤلاء المؤمنين من أتباع نوح _ عليه السلام_ وقد أمروا بركوب تلك السفينة الغريبة العجيبة التي لا عهد لهم بها من قبل، وهي راسية على بر ليس فيه قطرة ماء، ومن هنا كان التعجب من جري هذه السفينة وكونها وسيلة للنجاة.

فطمأنهم الله تعالى إلى أن هذه السفينة سوف تجري بمشيئته وبكرته (بسم الله) وأن جريها سوف يكون سهلا رخاء بلا معاناة ولا مشقة، ومن ثم جاءت الإمالة في مجراها لتعبر عن حركة تلك السفينة حيث تشق عباب الطوفان في يسر وسهولة ورخاء.

وحينما أراد الله تعالى أن يطمئنهم لرسوها، جاء لفظ (مرساها) بال إمالة ليعب عن حال رسو السفينة وما يناسبه من الثبات والاستقرار مما لا يتلاءم مع صفة الإمالة الواردة في مجراها.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا(١٠)﴾(الفتح:١٠) .

فالملاحظ في هذه الآية أنها هي الآية الوحيدة في القرآن التي جاء ضمير الغائب الموصول فيها مضموما؛ لأن القاعدة الشائعة في مجيئه في القرآن هي الكسر فيقال (عليهِ) بالكسر لا بالضم؛ وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ وكما في قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾.

ومن ثم يمثل الضم في هذه الكلمة عدولا عن القاعدة الصوتية القرآنية، فيا ترى ما سرّ هذا العدول؟

إذا تأملنا سياق الآية وجدناها عن مبايعة المؤمنين لرسول الله _ صلى الله عليه وسلم_ وتعظيم الله تعالى تلك البيعة ووصفها بأنها مبايعة له هو سبحانه، وإذا كانت البيعة لله رب العالمين فإن حقها التفخيم والتغليظ والتشديد والتوثيق، ولذا جاء

الضمير في (عليهُ) مضموما إشعارا بذلك التفخيم، وذلك ما لا يوحي به مجيء الضمير على أصل القاعدة مكسورا في هذا السياق، وأمر آخر يكشف عن القيمة الفنية لهذا العدول الصوتي، وهو أن حركة الحرف السابق على لفظ الجلالة يؤثر فيه بالتفخيم والترقيق حسب القاعدة الصوتية لنطق هذا اللفظ في القرآن الكريم؛ فإذا جاءت الهاء في (عليه) مكسورة كانت اللام من لفظ الجلالة مرققة، أما حيث جاءت الهاء مضمومة فإن اللام من لفظ الجلالة تنطق مفخمة فيتناسب تفخيم لفظ الجلالة مع ما يقتضيه السياق من تعظيم المُعَاهدَ، وتفخيم شأنه، والتحذير من نكث العهد معه.

ومن مظاهر العدول الصوتي في القرآن الكريم كذلك، ذلك العدول بفك الإدغام في لفظة (يحببكم) في قوله تعالى: **﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٣١)﴾** (آل عمران:٣١)، فالقاعدة الصوتية هنا هي الإدغام كما في قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)﴾** (المائدة:٥٤).

ويمكننا أن نعلل لفك الإدغام في الآية الأولى بالنظر إلى سياقها فهو سياق ترغيب في اتباع الرسول، وبيان أنه شرط لثبوت الإدعاء بمحبة العبد لربه، ووعد بالجزاء الحسن على تلك المحبة وذلك الاتباع، وقد جعل الله تعالى الجزاء من جنس العمل، فجعل جزاء هؤلاء الصادقين في محبته، محبة مضاعفة منه سبحانه لهم فكان في فك الإدغام في الباء المشددة ما يشعر بمضاعفة محبته تعالى وبسطها ومدها لمن أحبه واتبع رسوله.

كما أن هذا الفك معنى آخر نستطيع أن نستشفه من الآية وهو أن في لفظ يحببكم بفك الإدغام من الرقة ما ليس في اللفظ المدغم، فالناطق بالكلمة بهذه الطريقة يستشعر _ولله المثل الأعلى _ في اللفظ تدليلا وتنعيما للمخاطبين، كما يوحي قرب مخرج الباء الشفوية بتقريبهم، كما يوحي إسكانها بما في هذه المحبة من طمأنينة القلب وسكينته.

أما في آية المائدة التي جاءت على الإدغام فقد كان الإدغام أنسب لسياقها لكونها تتحدث عن الجهاد في سبيل الله، وهذا سياق يناسبه التشديد والخشونة فمن ثم جاءت الكلمة مدغمة إظهارا لذلك التشديد.

ومن مواضع العدول الصوتي العجيبة في القرآن الكريم كذلك لفظ (يَهدِّي) في قوله تعالى: **﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(٣٥)﴾** (يونس:٣٥).

ونظرا لأننا سوف نختم البحث بهذه الآية فإننا سوف نتعرض لما فيها كذلك من ظاهرة اختيار صوتي للمد وتركه في هذه الآية، بالإضافة إلى ما فها من عدول في لفظ (يهدِّي).

حيث نلاحظ المد في قوله تعالى: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ حيث يجوز مد الياء من يهدي لوجود سببها وهو الهمزة بعدها، بخلاف يهدي الثانية في قوله تعالى: ﴿يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ حيث يمتنع المد لامتناع سببه، وكذلك يجوز المد في: ﴿يَهِدِّي إِلا﴾ لوجود الهمز بعد الياء، ويمتنع في (يهُدى).

وإذا تأملنا أولا: أسباب اختيار المد في مواضعه في الآية مسترشدين بالسياق، وجدنا ذلك التناسق العجيب بين الآية بسياقها وما احتف بها من دلالات أخر صوتية ومعجمية وصرفية ونحوية.

فالآية إنما تعقد مقارنة بين هداية الله تعالى لأوليائه، ومن ثم استحقاقه للعبودية، وبين حال الآلهة الباطلة المزعومة من حيث العجز عن تقديم أي نوع من الهداية لشركائهم قلّ أم كثر، طال طريقه أم قصر، ولذا جاءت الآية بهذا الأسلوب الاستفهامي الإنكاري: ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ ويأتي المد في ياء يهدي ليوحي بطول طريق الهداية لدى هؤلاء الشركاء لو هَدُوا، وتتضافر دلالة المد هنا وهي دلالة صوتية مع الدلالة المعجمية لكلمة (إلى) التي تفيد بعد المسافة، فكأن الله تعالى يقول لهم: "هل من شركائكم من يهدي إلى الحق ولو بطريق طويل بعيد؟!" ويأتي الجواب في صورة التحدي الذي لا يحتمل الموازنة والمقارنة: ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ وهنا تأتي الدلالة الصوتية ممثلة في ترك المد في ياء يهدي إيحاء بقصر مسافة الهداية بالنسبة لله تعالى، فهو يهدي إلى طريق مستقيم، والطريق المستقيم هو أقصر الطرق المؤدية إلى الحق.

وتتضافر تلك الدلالة الصوتية مع الدلالة المعجمية لحرف اللام الذي يفيد قرب المسافة ولصوقها، فهدايته سبحانه تقربك للحق وتلصقك به من أقرب الطرق وأقصرها.

ثم يأتي الاستفهام التوبيخي: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ وهنا يأتي المد في الهداية المنسوبة إلى الحق سبحانه، ليصبح المعنى: أفمن يهدي إلى الحق ولو بطريق طويل _ (مع أن طريق هدايته أقصر الطرق، ولكن كأنه يعبر عن طوله في نظر المعرضين) _ أحق أن يتبع أم من لا تكون منه الهداية أصلا ولو ببطء شديد وتراخ إلى الأبد؟!

وهنا يأتي العدول الصوتي في كلمة (يَهدِّي) التي لا نظير لها في السياق القرآني كله لتعبر بذلك التشكيل الصوتي، وتلك الطريقة النطقية عن البطء الشديد في الهداية يستفاد ذلك البطء من كسر الهاء التي تأتي من أقصى الحلق ليصطدم الصوت بالدال الأسنانية المشددة المكسورة التي يظل الصوت حبيسا عندها لتضعيفها ثم يتمادى به في الهوى مع الياء الممدودة مدا طويلا، لوجود سبب المد بعده وهو همزة إلا، ليوحي ذلك المد بطول طريق الهداية مع بطئها الشديد كذلك.

ثم يزداد عجبك بعد ذلك إذا تأملت أن تلك الهداية مع بطئها وطولها الشديد وتراخيها الأبدي منفية كذلك على كل حال، فهؤلاء الشركاء لا يهدون أبدًا بحال من

الأحوال؛ إلا أن يهدوا، ولا تكون الهداية إلا من الله تعالى، فهم لا يهدون أصلا من قبل أنفسهم.

من مواضع العدول الصوتي في القرآن الكريم أيضًا كلمة (سأقيها) في قراءة من قرأ (وكشفت عن ساقيها) في قوله تعالى:﴿ **قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ**﴾ (٧٧) حيث عدلت الآية عن القاعدة اللغوية المطردة بتسهيل الهمز في (ساقيها) وهو الأصل وعدلت عنه إلى ما يمثل خروجا على هذه القاعدة (بالهمز) لغرض بلاغي هو الإيحاء بالتهكم أو السخرية من صنيع الملكة بلقيس في هذا الموضع، فكأن الآية بذلك تحاكي صوت الضاحك الساخر من فعلها بكشفها عن ساقيها حينما أوت بدخول الصرح وحسبته لجة ماء فكشفت عن ساقيها لتخوض تلك اللجة المتوهمة، بينما هي صرح ممرد من قوارير زجاجية لامعة تبدو فيها صورة الواقف عليه وكأنه ناظر إلى الماء أو واقف عليه.

وبهذا نرى ما لهذا العدول الصوتي من قيمة فنية في هذا السياق، تتضافر مع العناصر الدلالية الأخرى.

وبعد فلعلنا نكون قد وفقنا إلى إلقاء بعض الضوء على القيمة الفنية لتلك الدلالة الصوتية التي لا تزال بحاجة إلى العديد من البحوث التي تكشف عن أسرارها وغوامضها، ولعلنا قد نوفق إلى الكشف عن بعض تلك الأسرار في بحوث لاحقة لنا إن شاء الله تعالى.

---

(٧٧) النمل: ٤٤.

المبحث الثالث

التوظيف الأسلوبي والبلاغي للتشكيل الصوتي على أساس التكرار

التكرار الصوتي في التراث اللغوي والبلاغي:

عرضنا في بداية هذا البحث لوقوف البلاغيين القدامى عند الإيحاءات الدلالية للتشكيل الصوتي، وكان ابن جني أبرز هؤلاء اللغويين.

وإذا كان ابن جني[٧٨] قد استطاع أن يكشف عن المناسبة بين التكرار الصوتي و ما يوحي به من المعاني و الدلالات - مما يدل على وعيه بقيمته و دوره الدلالي - فلقد جاء من العلماء بعد ابن جني من يستهجن تكرار الحروف ويعده مخلا بحسن الكلمة و فصاحتها.

من هؤلاء على سبيل المثال ابن سنان الخفاجي[٧٩] و من تبعه كابن الأثير[٨٠] و الطيبي[٨١] والعيني[٨٢] و نكتفي هنا بذكر كلام كل من ابن سنان و العيني في هذا المقام.

يقول ابن سنان في شروط فصاحة اللفظة المفردة:"الأول منها أن يكون تأليف اللفظة من حروف متباعدة المخارج....و بيانه أن يجتنب الناظم تكرار الحروف المتقاربة في تأليف الكلام "كما أمرناه بتجنب ذلك في اللفظة الواحدة، بل هذا في التأليف أقبح، و ذلك أن اللفظة المفردة لا يستمر فيها من تكرار الحرف الواحد أو تقارب الحرف مثل ما يستمر في الكلام المؤلف إذا طال واتسع، وما زال أصحابنا يعيبون هذا البيت:

لو كنت كنت كتمت الحب كنت كما كنا نكون و لكن ذاك لم يكن

وليس يحتاج إلى دليل على قبحه للتكرار أكثر من سماعه....."[٨٣]

---

(٧٨) انظر الحديث عن (تأصيل البحث في دلالة الأصوات عند قدامى النحاة واللغويين) في بداية هذا البحث.

(٧٩) سر الفصاحة: ٩٠.

(٨٠) المثل السائر ١٦٣/١ بتعليق د / أحمد الحوفي، د / بدوي طبانة، ط دار النهضة بمصر وانظر الجامع الكبير لابن الأثير لذلك صـ ٢٧٣.

(٨١) علم البيع فن الفصاحةُ وهو الجزء من كتاب التبيان في المعاني والبيان بتحقيق ط المكتبة التجارية – مكة المكرمة ٤٩٥/٢.

(٨٢) العيني في (ملاح شرح مراح الأرواح) انظر مجلة المورد عدد ٢ سنة ١٣٩٦هـ صـ ١٧٥.

(٨٣) سر الفصاحة: ٩٠.

و قال العيني في (**ملاح الألواح في شرح مراح الأرواح**)

" واعلم أنه إذا اجتمع حرفان من جنس واحد أو متقارب في المخرج، يدغم الأول في الثاني لثقل المكرر. وذلك لأنه ثقل عليه التقاء المتجانسين لما فيه من العود إلى حرف بعد النطق به، وشبهه الخليل بوطء المقيد،فإن المقيد يمنع من توسع الخطو" فيصير كأنه يعيد قدمه إلى موضعها الذي نقلها منه، وذلك مما يشق على النفس، و شبهه بعضهم بوضع القدم و رفعها في حيز واحد، و بعضهم بإعادة الحديث مرتين فكل ذلك مستكره فلذلك صارت الحروف المتباعدة في المخرج أحسن في التأليف مما تدانت مخارجه"

وهذا الذي ذكره العيني و من قبله ابن سنان ومن تبعه يعاب عليهم فيه إطلاق القول بإعابة التكرير، و ذلك لأمور:

١-أن تكرير الصوت لا يعاب مطلقا و لا يمدح مطلقا بل إن استحسان ذلك و استقباحه لا يجوز إلا بالنظر إليه داخل سياقه، و سوف يتضح ذلك بما نورده قريبا من أمثلة التكرار الصوتي التي كان لتكرار الصوت فيها دلالة فنية لا يمكن الاستغناء عنها.

٢- أن هذا التكرار الذي أطلق القول بذمه و إعابته قد وقع في كتاب الله تعالى المشهود له ببلوغ الغاية في الفصاحة و البيان في مواضع تنأى عن الحصر نذكر منها:

ا-قوله تعالى: **﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨)﴾** (٨٤)

ب-قوله تعالى **﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾**(٨٥)

ج-قوله تعالى **﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾**(٨٦)

د- قوله تعالى: **﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾**(٨٧)

---

(٨٤) هود: ٤٨.

(٨٥) الجن: ١١.

(٨٦) الكهف: ١٠٩.

(٨٧) الجن: ٢٨.

هـ قوله تعالى: ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾[٨٨]

و – قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾[٨٩]

(٣) أن الثقل المنافي لحسن الجرس ليس سببه تكرار الحرف ، والاطراد وعدم اطراده ظاهر في كثير من الألفاظ التي تجاور فيها المتجانسان دون أدنى ثقل بل أكسبها تجاورهما حسن الجرس كما شهدناه قبل .

(٤) أن اللغة قد حرصت على قلب أحرف بعينها، وإدغام أخرى للحصول على التكرار بتجانس الحرفين متجاورين، ولو كان اجتماع المتجانسين ثقيلا لما احتالت لتوفيره تخفيفًا وتحسينًا للجرس.

يظهر هذا في أماكن منها ما اشتهر تطبيقه على كتاب الله: من إدغام النون الساكنة والتنوين بالغنة إذا تلاهما حرف من حروف "ينمو"، ودون الغنة إذا تلاهما اللام أو الراء.

ومثله ما يسميه علماء التجويد إدغام المتجانسين، ويوجبونه متى سكن السابق منهما في ستة مواضع:

(١) في الدال الساكنة قبل التاء مثل: ﴿ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ﴾.

(٢) في التاء الساكنة قبل الدال، مثل: ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ﴾.

(٣) في التاء مع الطاء، مثل: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ﴾

(٤) في الذال مع الظاء، مثل: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ..﴾

(٥) في الثاء مع الذال، مثل: ﴿أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ...﴾

(٦) في الباء مع الميم، مثل: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا﴾.

وكل ذلك مما يقلب فيه الأول من الحرفين ليجانس الثاني، فيوفر بالتكرار والإدغام حسن الجرس ويسر النطق، ولعله من المقرر المعلوم أن الإدغام لا يخرج

---

(٨٨) النحل: ٦٩.

(٨٩) الزمر: ١٦.

الحرفين عن الحكم بالتكرير، فلكل منهما صوته نطقًا وسماعًا وإن خالهما غير المتأمل حرفًا واحدًا[٩٠].

٥- أن تكرار الحرف لو كان ثقيلًا بذاته لما جاز أن يتضمن قاموس اللغة هذا الحشد من الكلمات، بل لما جاز أن يوجد المضعف الرباعي ومزيده وفروعهما[٩١] ، فإن كل لفظ منها يتضمن تكريرين معا .

وقد سبق أن ذكرنا أمثلة لمضعف الثلاثي في كتاب الله تعالى وأما ما ورد من المضعف الرباعي في الفصيح فهو كذلك في وفرته، ومنه:

﴿عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾[٩٢]

﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[٩٣]

وفي السنة : قول النبي –صلى الله عليه وسلم - " **يا أم السائب ما لك تزفزفين ؟**"[٩٤].

وقوله في وصف الوحي :" **صلصلة كصلصلة الجرس**".[٩٥]

وقول الرجل له :" **لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ**"[٩٦]

وفي المثل :"**شنشنة أعرفها من أخزم**".

وقال أبو كبير:

أزهير هل عن شيبة من معدل أو لا سبيل إلى الشباب الأول

أم لا سبيل إلى الشباب وذكره أشهى إليَّ من الرحيق السلسل

---

(٩٠) التكرير ص ٢٤ ط – عالم الكتب – د/ عز الدين علي السيد.

(٩١) السابق.

(٩٢) سورة الرحمن: ٧٦.

(٩٣) الحاقة: ٦.

(٩٤) رواه مسلم في البر والصلة ح (٤٥٧٥).

(٩٥) رواه البخاري في بدء الوحي ح (٢).

(٩٦) رواه أبو داود في الصلاة باب في تخفيف الصلاة.

وقال علقمة:

تخشخش أبدان الحديد عليهم كما خشخشت يبس الحصاد جنوب

وقال العجاج:

تسمع للحَلى اذا ما وسوسا زفزفة الريح الحصاد اليبسا

إن تكرار الصوت في المضعف الرباعي ألصق بموسيقا الطبيعة وبالنفس من الثلاثي، ولذلك لا ينبغي أن نذهب مذهب الناسبين الثقل إلى تكرار الحروف أو قرب المخارج دون تقييد، كابن سنان الذي يشترط لفصاحة المفرد ولفصاحة الكلام خلوه من تكرار الحرف ومن قرب المخارج[٩٧].

وإذا كنا قد أطلنا في الرد على أصحاب هذا المذهب فقد وجد من العلماء المتقدمين من تعقب هؤلاء العلماء وردّ كلامهم في هذا الباب مثل القلقشندي الذي تعقب ابن الأثير فيما ذهب إليه من أن تكرار الحروف مما يوجب التنافر[٩٨] فيرد عليه القلقشندي بقوله:

"ليس تكرار الحروف مما يوجب التنافر مطلقًا كما يقتضيه كلامه، بل بحسب التركيب، فقد تتكرر الحروف وتترادف في الكلمات المتتابعة مع القطع بفصاحتها وخفتها على اللسان وسهولة النطق بها. ألا ترى إلى قوله تعالى: " قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ".

كيف اجتمع فيه ست عشرة ميمًا في آية واحدة، قد تلاصق منها أربع ميمات في موضع، وميمان في موضع، مع ما اشتملت عليه من الطلاوة والرونق الذي ليس في قدرة البشر الإتيان بمثله والله أعلم "[٩٩].

ورد القلقشندي هنا يرجع إلى الوجهين الأول والثاني من وجوه الرد التي سبق أن رددنا بها على أصحاب هذا المذهب.

كذلك فقد أدرك بعض أئمة اللغة المتأخرين كالثعالبي القيمة الجمالية للتكرار الصوتي للحرف بما يعد سبقًا علميًا في مجال البحث الأسلوبي والجمالي يقول الثعالبي:

---

(٩٧) السابق.

(٩٨) الجامع الكبير صـ ٢٧٣.

(٩٩) صبح الأعشى ٢: ٢٧٣.

" فإذا استمعتَ إلى إنشاد البحتري في وصف الذئب الجائع المرتجف بسبب البرد ظننته أمامك:

يقضقض عصلا في أسرتها الردى كقضقضة المقرور أرعده البرد

فإن تكرر القاف وتواليها خمس مرات، وتكرر الراء ست مرات مع الحروف الأخرى يوحي بصورة الذئب في ضراوته وجوعه وارتجافه"[١٠٠].

إن هذا النص يكشف لنا عن وعي الثعالبي بما للأصوات من قيم دلالية جمالية يمكن استشفافها من السياق، كما يكشف لنا عن وعيه بالدلالة الفنية للتكرار الصوتي للحروف وأثره في إبراز المعنى وإيضاحه.

التكرار الصوتي في الدراسات الأسلوبية

إن هذه الإشارات المتناثرة سواء عند المتقدمين كالخليل وسيبويه وابن جني، أو المتأخرين كالقلقشندي والثعالبي وغيرهما لتدل أبلغ الدلالة على أن البحث الأسلوبي في أدق معانيه لم يكن غائبًا عن الفكر اللغوي والبلاغي عند أسلافنا القدامى.

ومن ثم فليس سبقًا للأسلوبية الحديثة التفاتها إلى القيمة الفنية للأصوات[١٠١] في إطار استيعابها لجميع العناصر الدالة وجميع العناصر المدلولة بحثًا يتوخى تكاملها النهائي[١٠٢]

أقسام التكرار الصوتي :

أحب أن أقرر هنا أن هذا البحث ليس بدعًا في هذا الجانب، فقد سبق أن التفت إلى القيمة الفنية للتكرار الصوتي عدد من الباحثين المحدثين[١٠٣] وقد حاول كل واحد منهم ذكر أقسام هذا النوع، وقد أفدت من تلك المحاولات وأضفت إليها ما رأيته جديرًا بالإضافة مما لم ينبهوا إليه.

---

(١٠٠) فقه اللغة وخصائص العربية: ٢٦١ – دار الفكر ١٩٦٨.

(١٠١) تحدثت في بحث العدد السابق عن دلالة الأصوات في الدراسات الأسلوبية الحديثة وعرضت فيه لرأي كل من أولمان وجسبرسن ورتشارد وغيرهم.

(١٠٢) انظر د/ صلاح فضل / علم الأسلوب ص ١٢٣.

(١٠٣) انظر على سبيل المثال: نازك الملائكة في قضايا الشعر المعاصر / الطبعة الأولى. د/ فاطمة محجوب في بحث لها عن التكرار في الشعر في مجلة الشعر عدد ٨ سنة ١٩٧٧ صـ ٤٠، د/ عز الدين علي السيد / التكرير بين المثير والتأثير صـ٧ ط عالم الكتب، د/ مصطفى السعدني / البنيات الأسلوبية في لغة الشعر العربي الحديث صـ ٣٠ ط منشأة المعارف بالأسكندرية.

وسوف أعرض هنا لأقسام التكرار الصوتي في خطة هذا البحث مع شفع كل قسم من أقسامه ببعض الأمثلة والنماذج التي سوف نقف أمام بعضها بالتحليل لنقف على القيمة الجمالية والفنية للتكرار الصوتي في نماذجه الأدبية الرفيعة التي أحسن توظيفه فيها.

ويمكننا أن نقسم التكرار الصوتي إلى هذه الأنواع:

أولًا: بحسب نوع الأصوات

يمكن أن ينقسم إلى:

١- تكرار حرف كما في **(أمم ممن معك) (تحبون) (يجببكم)**.

٢- تكرار حركة، وهي إما قصيرة كما في **(النُّذُر- الزُّبُر- الدُّبُر- سُعُر- القَمر)** وإما حركة طويلة وهي المدود بالألف والواو والياء كما في نهايات الفواصل القرآنية.

٣- تكرار مقطع كما في وسوس- كبكب -زلزل

٤- تكرار كلمة وذلك حينما توظف كصوت محض وذلك كما في تكرار كلمة الحاقة في **(الحاقة. ما الحاقة. وما أدراك ما الحاقة)**

ثانيًا: بحسب صفة الأصوات، وذلك كتكرار الهمس والجهر والإطباق والقلقلة إلخ. وذلك كتكرار صفة القلقلة في فواصل سورة **(ق)**.

ثالثًا: بحسب كيفية التكرار، وينقسم إلى:

١- متتابع كما في **(أمم ممن معك)** وكما في **(سُعُر)** و**(سَقر)**.

٢- منفصل كما في **﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾** وأمثلة كثيرة.

رابعًا: بحسب درجة التكرار، وينقسم إلى:

١- مطرد وهو التكرار الملتزم به في موضع معين كفواصل الآيات أو القوافي ومن أمثلته تكرار حرف الراء في جميع فواصل سورة القمر، وتكرار الهاء في الفقرة المعروضة من سورة الحاقة**﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾** الآيات.

٢- غير مطرد : وذلك كالتكرار المتناثر في مواضع متعددة في النص بغير التزام بالمكرر في موضع بعينه.

خامسًا بحسب القيمة الفنية، وينقسم إلى:

١- مطابق: وهو ماجاء متسقًا مع سياقه بلا تكلف، وتبدو قيمته الجمالية في إحداث نوع من الموسيقى الداخلية لها أثر إيجابي كبير في تلقي المخاطب.

٢- بليغ: وهو ماجاء متسقًا مع سياقه مع زيادة نكتة أو غرض بلاغي يمكن الوقوف عليه عند تأمل المناسبة بين السياق والسمات الصوتية المكررة.

٣- متكلف: وهو ماجاء متنافرًا مع السياق.

وجميع النماذج القرآنية تنتمي إلى النوعين الأول والثاني أي أنها مطابقة وبليغة في الوقت نفسه، ولكن يتضح دخولها في النوع الثاني أو يخفي بحسب القدرة على استشفاف النكتة والغرض البلاغي الذي وظف التكرار الصوتي لأجله، وهو ما سوف نكشف عنه في الأمثلة التي سنقوم بتحليلها في هذا البحث .

أما النوع الثالث المتكلف فليس له أمثلة في الكتاب العزيز.

النماذج التطبيقية

للتوظيف الأسلوبي والبلاغي للتكرار الصوتي في القرآن الكريم

سنعرض هنا للأمثلة القرآنية التي تعود إلى الأنواع السابقة على سبيل الإجمال مع التنبيه على ما يعود على كل واحد من هذه الأقسام السابق بيانها.

فمن أمثلة تكرار الأحرف وتكرار المقطع كذلك:

١- تكرار الواو والسين في كلمة **(توسوس)** **(يوسوس)**(*) في قوله تعالى:

٢- **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾**(١٠٤)

٣- وقوله تعالى: **﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾**(١٠٥)

نلمح في هذين المثالين أن الفعل "وسوس" يتركب من تكرار المقطع **(وس)** وهذا التكرار الصوتي لهذا المقطع يحاكي عملية الوسوسة بما تشتمل عليه من إلحاح وإغراء بالشيء يقتضي تكرار الإيعاز بالشيء مرّة بعد مرّة.

كما أن تكرر الواو بما تشتمل عليه من خفاء ولين يؤكد معنى الخفاء والمكر ولين القول في عملية الوسوسة.

وكذلك تكرر السين بما تشتمل عليه من همس وصفير يؤكد معنى الهمس والإخفاء في الوسوسة فما أشبهها بصوت صفير الريح ووسوسة الحلى ونحو ذلك ، وهذا يؤكد معنى الخفاء من جهة كونه صوتًا غائمًا، ومعنى التشويش على الضمير من جهة ما فيه من صفير وغوغائية متكررة.

وتأتي هذه الدلالة متناغمة مع سياق الآية الدال على مدى علم الله تعالى بوساوس النفوس مهما خفيت ودقت، وعلمه كذلك بضعف الإنسان ومعاناته أمام هذه الوساوس المتكررة والملحة عليه مما يقتضي رحمة الله تعالى وعفوه عن عباده التائبين.

وتأتي هذه الدلالة كذلك متناغمة مع دلالة السياق في المثال الثاني الذي يأمر الله تعالى عباده أن يستعيذوا به من شر هذه الوساوس الشيطانية الملحة المتكررة، فهو وحده القادر على إعاذتهم منها ووقايتهم من شرورها.

---

(١٠٤) ق: ١٦.

(١٠٥) الناس :٥.

ومن أمثلته أيضًا:

تكرار الكاف والباء في كلمة **(كبكبوا)**(*) في قوله تعالى: ﴿ **فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ**﴾(١٠٦)

في هذا المثال نجد أن الفعل **(كبكب)** قد اشتمل على تكرر المقطع **(كب)** مما يوحي بتكرر **(كب)** أهل النار فيها وتواليهم في دركات الجحيم، وهذا يأتي منسجمًا تمام الانسجام مع سياق الوعيد والتهديد لهؤلاء الغاوين الضالين ، كما أن تكرر الباء بما فيها من قلقلة وانفجارية يأتي مناسبا تمام المناسبة لمحاكاة تردي تلك الأفواج في النار مع محاكاة صوت الوقوع والاصطدام، ولعل الاحتكاك بين الكاف والباء وتكرره قد يشارك في تلك المحاكاة معبرًا عن احتكاك تلك الأفواج بعضها ببعض.

ومن أمثلة تكرار الحروف: تكرار الباء في كلمة **(تحبون)** **(يحببكم)** في قوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾(١٠٧)

نلاحظ أن تكرار الباء في الموضع الأول قد جاء مع الإدغام عن طريق التشديد مما أضفى على الكلمة نوعًا من الإجلال والوقار يزيد محبة العباد لربهم فهي ليست كمحبة الأزواج والأولاد. أما في محبة الله تعالى لعباده التي جاءت على سبيل الجائزة والمكافأة لمحبتهم إياه فقد جاء التكرار بفك الإدغام في الحرف المشدد مناسبًا لمضاعفته سبحانه تلك المحبة عليهم، وفي الحديث الصحيح الثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم عن رب العزة جل وعلا **"من تقرب إليّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا.."** كما أن لهذا الفك للإدغام معنى آخر نستطيع أن نستشفه من الآية وهو أن في لفظ يحببكم بفك الإدغام من الرقة ما ليس في اللفظ المدغم، فالناطق بالكلمة بهذه الطريقة يستشعر - ولله المثل الأعلى - في اللفظ تدليلًا وتنعيمًا للمخاطبين، كما يوحي تكرر الباء الشفوية ذات المخرج القريب بزيادة تقريبه سبحانه إياهم ومضاعفته المحبة لهم إزاء محبتهم إياه .

(*) سبق معالجة هذه الكلمة في مبحث الاختيار، وقد أوردناها في هذا البحث للنظر إليها من جهة تشتمل عليه من تكرار صوتي.

(١٠٦) الشعراء: ٩٤.

(١٠٧) آل عمران: ٣١.

ومن الأمثلة العجيبة لتكرار الحروف كذلك:

تكرار ثمان ميمات متوالية في قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾(١٠٨)

في هذا المثال توالت ثمان ميمات في قوله تعالى " **أمم ممن معك**" وذلك بالنظر إلى ما في الأحرف المشددة من تكرار وتضعيف. ونستطيع أن نجتهد في تفسير توالي هذه الميمات واجتماعها في هذه الآية على هذا النسق إذا ما تأملنا سياق الآية الذي يتحدث عن بشارة الله تعالى لنوح بهبوط سفينته على الأرض مؤذنًا ببداية العمران والاجتماع لهذه الأمم التي اجتمعت مع نوح عليه السلام في هذه السفينة بأمره سبحانه لنوح ﴿احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾(١٠٩)

ويأتي اجتماع هذه الميمات - بما للميم نفسها من صفة الاجتماع في المخرج حيث تنضم الشفتان وتجتمعان عند النطق بها وتصاحبها غنة مقدارها حركتان تؤدي إلى استقرار الصوت عند النطق بها - يأتي اجتماع هذه الميمات بتلك الصفات معبرًا تمام التعبير عن اجتماع تلك الأمم واستقرارها في ذلك العمران الجديد الذي تبشر به هذه الآية الكريمة.

ولعلنا قد نتجاوز الحدّ في الاجتهاد إذا حاولنا التخرص بعلة كون هذه الميمات ثمانية.

ومع تقييد ذلك بكونه مجرد حدس وظن واجتهاد قد يصيب وقد يخطئ فنقول - والله تعالى أعلم - لعل السبب في ذلك أن الأجناس التي قد اجتمعت مع نوح أربعة أجناس هي:

١- جنس الإنس

٢- جنس الجنّ

٣- جنس الدواب

٤- جنس الطير

---

(١٠٨) هود: ٤٨.

(١٠٩) هود: ٤٠.

فالإنس والجن جنسان، والطير والدواب جنسان آخران بدليل قوله تعالى ﴿ **وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ**﴾[١١٠] فقسم الله الحيوان إلى جنسين: دواب، وطيور وسمّى الجميع أممًا.

وبهذا يكون قد اجتمع مع نوح عليه السلام أربعة أجناس؛ فإذا ضربت في اثنين باعتبار جنسي الذكور والإناث بدلالة قوله تعالى: ﴿ **قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ**﴾[١١١] كان حاصل ذلك ثمانية أجناس فكأن اجتماع هذه الميمات الثمانية بإزاء اجتماع هذه الأجناس واستقرارها في تلك الحياة الجديدة.

ومن الأمثلة الواضحة لتكرار الحروف والحركات : قوله تعالى ﴿**كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا**﴾

نستشعر في تتابع الدالين المفتوحين دلالة ذلك التكرار على تعدد تلك الطوائف من الجنّ ، كما أن تتابع الفتح وتكراره في الدالين يورث النطق نوعا من التنافر الفني الذي أحسن توظيفه للدلالة على ما بين هذه الفرق من تفرق واختلاف . ويشارك في حدوث هذا التنافر انتقال الفم من الكسر في القاف إلى الفتح المتكرر في الدالين مما يجعل الفم في هيئة شبيهة بهيئة المشمئز المستنكر لشيء ، ويتقوى هذا الاشمئزاز والاستنكار بما في حرف الدال من جهر وانفجار مع تكرر ذلك الجهر والانفجار ويؤيد هذا المعنى ما فهمه كبار المفسرين من المعنى الجملي لهذه الآية .

قال ابن كثير : **{كنا طرائق قددا }**" أي طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة "[١١٢]

ومن أمثلته كذلك قوله تعالى : ﴿**قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا**﴾[١١٣] نستشعر هنا في هذه الآية الكريمة دلالة التكرار لحركات الفتح المتتالية على أحرف الكلمة كلها مع تكرار حرف الدال ولعل هذا هو سبب التفريق بين دلالة تكرار الدال في هذا الموضع والموضع السابق ؛ وذلك لأن هيئة التنافر المتولدة في الموضع الأول (**قددا**) بسبب الانتقال من الكسر إلي الفتح ، قد زال سببها في هذا الموضع ، وجاء تتابع الفتح مع

---

(١١٠) الأنعام: ٣٨.

(١١١) هود: ٤٠.

(١١٢) تفسير ابن كثير ، سورة الجن ، آية ١١.

(١١٣) سورة الكهف : ١٠٩.

تتابع الدالين بسماتهما الصوتية المذكورة آنفا من الجهر والانفجار جاء ذلك التتابع بتلك السمات الصوتية متناغما ومتسقا تمام الاتساق مع دلالة التتابع والإمداد والإرداف المتتالي اللانهائي الذي أرادت الآية أن تعبر عنه في مقام التعبير عن اتساع علم الله تعالى وكثرة كلماته تلك الكثرة غير المتناهية التي تنأى عن الحصر .

وشبيه بتلك الدلالة السابقة لتوالى الحروف والحركات قوله تعالى : ﴿ **لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا**﴾[١١٤] حيث نستشعر هنا في توالى وتكرار حركات الفتح في كلمة (**عددا**) وتكرار الدال فيها مناسبة تامة لسياق الآية الدال علي الإحصاء والإحاطة والجمع والعد فجاء تتابع تلك الحروف والحركات وتواليها بإزاء تتابع حركة العد والإحصاء وتواليها .

ومن أمثلة توالى السمات الصوتية وتكررها ، تكرار الترقيق باختيار الأحرف المرققة في كلمة (**ذللا**) من قوله تعالى :

﴿**وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً**﴾

إن السياق هنا سياق امتنان من الله تعالى علي عباده بأن ذلل السبل ومهدها للنحل حتى يخرج للناس مادة غذائهم وشفائهم وتأتى دلالة تكرار الأحرف المرققة في كلمة " ذللا" متناغمة ومتسقة تمام الاتساق مع تلك الدلالة ، فتوالى تلك الأحرف المرققة الذال واللامين مع ما في الذال من ذلاقة وهمس مع رقة اللام المكررة كذلك ، كل ذلك يوحي تمام الإيحاء بالتذليل والتسهيل ، وإنك لتجد ذلك واضحا في سهولة النطق بتلك الكلمة مع ما نستشعره من تكرار الضم وتتابعه من حنو ورفق لا يكذبه الحس والشعور . إذا وازنا بين دلالة الكلمة السابقة " **ذللا** " وكلمة شبيهة بها وهى (**ظلل**) مع النظر إلى القيمة الخلافية لكل من حرفي الذال والطاء كصوت فإننا نقف على ما يقوم به الصوت من دور فعال في مناسبة المعنى . وذلك أنه لما كان السياق سياق تذليل وتسهيل وامتنان ونعمة ناسب ذلك إيراد حرف الذال المهموس المرقق.

ولما كان السياق في الآية الأخرى سياق وعيد وتهديد وتخويف ناسب ذلك إيراد حرف الظاء المجهور المفخم ، وتأتى هذه القيمة الخلافية لحرف الظاء متناغمة تمام التناغم مع تكرار اللام بعدها للدلالة على تتابع الظلل النارية وتراكب بعضها فوق بعض .

---

(١١٤) الجن : ٢٨.

وإذا كان تتابع الضم في كلمة **(ذللا)** قد جاء موحيا بالحنو والرفق والرحمة ، فإن سياق الوعيد والتهديد ليس بحاجة إلى شيء من ذلك ، وإنما يناسبه ذلك التراكب العجيب في الانتقال من الضم إلى الفتح بما في الفتح من استعلاء مناسب لاستعلاء تلك الظلل وتراكبها .

الجناس البديعي والتناغم الصوتي:

من الظواهر اللافتة للنظر في ظاهرة التكرار الصوتي تكرر حروف بعينها داخل الجملة الواحدة بين كلمتين أو أكثر محدثة نوعًا من الجناس الصوتي الذي عرفه البلاغيون في مبحث الجناس البديعي المعروف.

وغني عن البيان أن نقرر هنا ما سبق أن قرره البلاغيون من قبل كأمثال عبدالقاهر الجرجاني حيث قرر أن هذا الجناس لا يحسن إلا إذا كان المعنى هو الذي يستدعيه ويتطلبه، حيث أطال في هذا المعنى وأبدأ وأعاد فقرره على أكمل وجه ثم قال: "وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيسًا مقبولاً، ولا سجعًا حسنًا، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه، وحتى تجده لا تبتغي به بدلاً، ولا تجد عنه حولاً، ومن هاهنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه، وأحقه بالحسن وأولاه، ما وقع من غير قصدٍ من المتكلم إلى اجتلابه، وتأهب لطلبه، أو ما هو – لحسن ملاءمته، وإن كان مطلوبا – بهذه المنزلة وفي هذه الصورة، وذلك كما يمثلون به أبدًا من قول الشافعي رحمه الله تعالى وقد سُئل عن النبيذ فقال: "أجمع أهل الحرمين على تحريمه". ومما تجده كذلك قول البحتري: [من الكامل]

يَغْشَى عَن المجد الغبيُّ ولَنْ تَرى — في سُوددٍ أرَبًا لغير أريبِ

وقوله: [من الوافر]

فقد أصبحتَ أغْلبَ تَغْلِبيٍّ — على أيدى العَشِرةِ والقلوبِ

ومما هو شبيه به قوله: [من الكامل]

وهوىً هَوَى بدُموعه فتبَادَرَتْ — نَسَقًا يَطأْنَ تجلُّدًا مغلوبَا

وقوله: [من الكامل]

ما زلت تقرَعُ بابَ بابَكَ بالقنا — وتزوره في غارةٍ شعواءِ[115].

---

(١١٥) عبد القاهر الجرجاني – أسرار البلاغة/ تحقيق محمود محمد شاكر - ط مطبعة المدني القاهرة – صـ١١.

ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (٧٢) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾(١١٦).

وكقوله تعالى: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾(١١٧).

وقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾(١١٨).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾(١١٩).

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾(١٢٠).

وقوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ (١٢١).

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾(١٢٢).

وقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾(١٢٣).

وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾(١٢٤).

حيث نلاحظ في هذه الأمثلة جميعًا تناسبا وتجانسًا صوتيًا بين الكلمتين المتجانستين مما يضفي على الجملة نوعًا من الموسيقى الداخلية بين الكلمات لها أثر بالغ في تمثل المعاني مع انسجام تلك الألفاظ في الوقت نفسه مع معانيها واتفاقها معها بحيث لا تجتلب تلك الألفاظ لأجل إحداث ذلك التجانس وإنما تقتضيها المعاني وتتطلبها.

---

(١١٦) الصافات: ٧٢-٧٣.

(١١٧) القيامة: ٢٩-٣٠.

(١١٨) الهمزة: ١.

(١١٩) العاديات: ٧-٨.

(١٢٠) الأنعام: ٢٦.

(١٢١) النمل: ٢٢ .

(١٢٢) الكهف:١٠٤.

(١٢٣) الروم: ٤٣.

(١٢٤) الواقعة: ٦٨-٦٩.

ونضرب هنا مثالاً لذلك الجناس الصوتي الذي تحقق فيه التوافق مع السياق، واقتضاه النظم، وتطلبه المعنى وذلك كما في قوله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ**﴾(١٢٥). وهذا يمثلون به للجناس التام، وفيه فائدة أكبر من مجرد التحسين اللفظي، والذي قصر القوم عليه فائدة الجناس، والحق أن فيه تحسينًا للمعنى أيما تحسين، كما أن فيه أبلغ المطابقة للمقام، وأروع تعبير عن حال هؤلاء المجرمين، وأوضح كشف لما تنطوي عليه ضمائرهم ونفوسهم في هذا اليوم العصيب من الحسرة والندامة، ومدى إحساسهم بالغبن والفجيعة والخسران المبين.

فالجناس في هذه الآية كان له دور كبير في تنبيه الذهن لعقد المقارنة بين ساعة الدنيا وساعة الآخرة، وكيف أن هؤلاء المجرمين قد أهملوا أمر هذا اليوم وهذه الساعة التي تعقبها نار أبدًا أو جنة أبدًا من أجل هذه الدنيا الرخيصة التي تبين لهم قدرها الحق في ذلك اليوم بالنسبة إلى طول الموقف وهو له وتلفت الآية بطريق الجناس ذهن القارئ إلى أن نسبة هذه الدنيا إلى الآخرة كنسبة ساعة من ساعات الدنيا، كما تبين له مدى جرم هؤلاء المجرمين من حيث أفرطوا في العمل لساعة كان مقدارها خمسين ألف سنة من أجل ساعة عاجلة يراها المجرمون يومئذ كأنها لم تكن إلا عشية أو ضحاها فشتان بين ساعة وساعة، ففيه أبلغ الزجر عن الانشغال بتلك الساعة العاجلة الفانية عن العمل للساعة الآجلة الباقية كما أنك ترى في هذا الجناس من المطابقة والموافقة للمعنى بحيث لا يمكنك أن تعبر عن المعنى المراد بغير هذا الجناس فإنك لو قلت: "ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير عشية أو ضحاها" أو "إلا عشية أو ضحاها" لما أديت حق المقام، فإن المقام هنا مقام قسم، والقسم إنما يراد فيه المبالغة في إثبات أمر هو المقسم عليه، وذلك الأمر المراد المبالغة في إثباته هنا هو بيان قلة لبثهم في الدنيا، وأنهم لم يمكثوا فيها زمنًا كافيًا ليتأهبوا فيه لهذا اليوم، ويعدوا له عدته، ومن أجل ذلك يقسمون على ذلك لله عز وجل ظانين أن ذلك ينفعهم عند ربهم لعله يستجيب لهم إذا طلبوا العودة إلى الدنيا مرة ثانية": ﴿**رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ**﴾(١٢٦).﴿**رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ**﴾(١٢٧).

---

(١٢٥) الروم: ٥٥.

(١٢٦) فاطر: ٣٧.

(١٢٧) المؤمنون: ١٠٧.

ولذلك يكون جوابهم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾[١٢٨]. فلعلهم لما سمعوا هذا الجواب أملوا أنهم لو أقسموا أنهم ما لبثوا فيها إلا زمانًا يسيرًا، لعل ذلك يكون عذرًا لهم عند ربهم فيخرجهم من النار ويعيدهم إلى الدنيا مرة أخرى، ولذا كان لفظ ساعة أوفق لهذا المعنى أليق بالمقام من قولهم عشية أو ضحاها، لأن العشية أو الضحى قد تكون عدة ساعات لأن اليوم أربع وعشرون ساعة في لغة العرب "والساعة في الأصل تطلق بمعنيين أحدهما أن تكون عبارة عن جزء من أربعة وعشرين جزء من مجموع اليوم والليلة والثاني أن تكون عبارة عن قليل من النهار أو الليل. يقال: جلست عندك ساعة من النهار، أي: وقتًا قليلاً منه"[١٢٩] كما أن الساعة هي أقل ما يطلق على الوقت في لغة العرب، ولا يطلق عداها مما يعبر عن القلة في الوقت إلى مجازًا كقولك: "انتظر لحظة" أي مقدار لحظة عين، وهذا في حد علمي وبحثي في كتب اللغة.

فهنا نجد أن الجناس في هذه الآية يحقق مغزى بلاغيًا، ونكتة زائدة تزيد بها مطابقة الكلام للمقام.

ففي هذا المثال نلاحظ أن المعنى هو الذي اقتضى هذا الجناس وتطلبه مع ما فيه من تحسين للفظ والجرس والنغم.

التكرار الصوتي في سورة القمر

يعد التكرار في هذه السورة من أهم عناصر الإعجاز الصوتي بها حيث تم توظيفه بطريقة متناغمة ومنسجمة مع الغرض العام الذي سيقت السورة لأجله .

إن الناظر في هذه السورة الكريمة يكاد يستشعر أن التكرار يكاد يمثل الغاية والوسيلة معا في هذه السورة ، فالغاية أو الغرض من هذه السورة هو عرض صور النذارة المتكررة لإزعاج هؤلاء الغافلين . ومن ثم نستطيع أن نلمح صور التكرار في هذه السورة ممثلة في:

الصورة الأولى : تكرار الآيات الكونية المنذرة بقرب الساعة وعذاب الكافرين ممثلة في :

انشقاق القمر _ الطوفان وسفينة نوح عليه السلام _ ريح قوم عاد _ ناقة ثمود _ إهلاكهم بالصيحة _ إهلاك لوط بالحاصب _ الآيات التي جاء بها موسى

---

(١٢٨) فاطر: ٣٨.

(١٢٩) لسان العرب، مادة (سوع)، ٢١٥١/٣ ط دار المعارف.

لفرعون وقومه _ إهلاك فرعون وقومه لما كذبوا بالآيات ﴿ **كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ**﴾

الصورة الثانية : تكرار الآيات السمعية ممثلا في : ﴿**وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ**﴾ القمر :٤

حكمة بالغة " القمر ٥"
ذكر **(القرآن)** أربع مرات .

ذكر **(الذكر)** القمر :**(٢٥)** مرادا به ما أنزل على الرسل السابقين .

الصورة الثالثة : تكرار ذكر الرسل وبعثهم ونذارتهم لأقوامهم **(قوم نوح وعاد وثمود ولوط وآل فرعون وأهل مكة)**

الصورة الرابعة : تكرار مصارع المكذبين من الأمم السابقة

الصورة الخامسة : تكرار إنجاء المؤمنين من الأمم السابقة

الصورة السادسة : تكرار الامتنان علي العباد بنعمة تيسير القرآن للذكر أربع مرات

الصورة السابعة : تكرار الحض على التذكر والاتعاظ مرارا " **فهل من مدكر** " ذكرت ست مرات .

الصورة الثامنة : تكرار النذارات إلى العباد بصورها المختلفة وقد تكررت كلمة **(النذر)** بلفظها في هذه السورة عشر مرات كما تكررت النذارة بمادتها ومعناها أكثر من ذلك .

الصورة التاسعة : تكرار لفظ العذاب سبع مرات منسوبا ـ في ست منها ـ إلى الله تعالى **(عذابي)** ، وتكرار الإذاقة للعذاب مرارا حيث تكرر لفظ " **فذوقوا عذابي ونذر** " مرتين ، وتكرر لفظ **(ذوقوا)** ثلاث مرات بعد قوله تعالى " **ذوقوا مس سقر**"

الصورة العاشرة : تكرر لفظ **(الزجر)** بمادته مرتين **(مزدجر)** آية : ٤ **(وازدجر)**آية :٩

الصورة الحادية عشر : تكرار لفظ الأخذ بمادته مرتين في ﴿ **فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ**﴾٤٢

هذا التحليل السابق لأهم صور التكرار في سورة القمر نستطيع أن نتخذه مفتاحا للوصول إلى سر التكرار الصوتي الذي اشتملت عليه فواصل هذه السورة الكريمة حيث تكرر صوت الراء بصورة مطردة في جميع فواصل هذه السورة الخمسة والخمسين بلا استثناء ، كما قد تكررت بعض الأحرف والحركات في هذه السورة لأغراض بلاغية بعيدة المدى . وإذا صح ما قلناه آنفا من أن هذه السورة الكريمة قد اتخذت التكرار وسيلة وغاية في الوقت نفسه ، فالغرض هو تكرير الحجج والآيات والبينات والزواجر علي مسامع هؤلاء الغافلين ، حتى لقد تكرر التكرار في هذه السورة بصور شتى .

إن هذه السورة إذا هي سورة التكرار ؛ ومن ثم فليس ثمة حرف أنسب لفواصل هذه السورة من حرف الراء لاشتماله علي سمة التكرارية كسمة لازمة له في طبيعة النطق به ؛ ومن ثم يأتي هذا الحرف بهذه السمة الصوتية متناغما تمام التناغم مع سياق هذه السورة ومقامها وغرضها البلاغي.

وثمة مظاهر أخر للتكرار الصوتي في هذه السورة الكريمة تتمثل في تكرار الحركات وتواليها في كلمات هذه السورة كما في تكرار الضم (**النُّذُر _ نُكُر _ الزُّبُر _ الدُّبُر _ سُعُر _ دُسُر**) وكما في تكرار الفتح وتواليه في (**القمر _ عقر _ سحر_ شكر _ أمر _ سقر _ قدر _ نهر**)

كما تبدو مظاهر التكرار الصوتي كذلك في تكرر بعض حروف هذه السورة إما بصورة متتابعة كما في تكرار السين في (**مسّ سقر**) أو بصورة منفصلة كما في تكرار السين في (**نحس مستمر**)

ويمكننا أن نقف هنا عند بعض مظاهر هذا التكرار لتأمل ما فيه من الأسرار

.

فعلى سبيل المثال في قوله تعالى : ﴿**يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ**﴾ القمر : ٤٨

كمثال لتوالى الحرف وتكراره على التتابع والانفصال معا حيث تكررت السين أربع مرات في (**يسحبون _ مس _ سقر**) وتكررت على التوالي ثلاث مرات في (**مس سقر**) باعتبار الحرف المشدد في (**مس**) كما تكررت حركات الفتح على التوالي في أحرف (**سقر**) وحينما نتأمل السمات الصوتية لحرف السين بماله من طبيعة احتكاكية تبدو واضحة عند النطق به نستشعر مدى مناسبة هذا الصوت الاحتكاكي المهموس لسياق الآية ومعناها حيث يتهكم بالكافرين حينما تأكل النار أجسادهم بمجرد المماسة لها ويأتي حرف السين بما فيه من احتكاك وصفير كأنه حكاية لصوت احتكاك تلك النيران بأجساد هؤلاء الكافرين ، بل إننا لنستشعر عند

النطق بهذه السينات المتتالية في " **مس سقر** " حكاية صوت الشيء الذي يشيط ويحترق عند تسليط النيران عليه ، ويمكن أن تتذوق ذلك بنفسك بتكرار تلك السينات وتأمل هذا المعنى عند النطق بها في هذا السياق .

ويأتي هذا الصوت الاحتكاكي في هذه السينات المتتالية متجاوبا ومتناغما مع صوت الاحتكاك المتجاوب في أول الآية من السين المعبرة أيضا تمام التعبير عن حكاية صوت السحب وما فيه من احتكاك واضح في قوله (**يسحبون**)

ومن ثم يتجاوب الاحتكاك المنبعث في أول هذه الآية مع الاحتكاك المتتابع في آخرها . كما يأتي هذا التتابع للاحتكاك والمس في إذاقة العذاب متجاوبا مع توالي الحركات المفتوحة في (**سقر**) التي تدل كذلك بتكرر حركات الفتح فيها على توالي العذاب ، وسرعة غليان تلك النيران وتقلبها بأهلها فهي تفور بهم كما تفور القدر بالحب ، ومن ثم يأتي توالي الحركات هنا محاكيا تمام المحاكاة لذلك الفوران والغليان . وإذا كنا قد استشعرنا ذلك من توالي حركات الفتح في مثل (**سقر**) فإننا نكاد نستشعر كذلك مدى تلهف هذه النار على التهام أهلها وضمهم إليها في توالي الضم وتكراره في نحو (**سعر**) التي جاءت متجاوبة مع (**سقر**) في قوله تعالى ﴿**إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨)**﴾.

التكرار الصوتي في سورة الحاقة

لن نستطيع الوقوف أمام جميع مظاهر التكرار الصوتي في هذه السورة الكريمة ولكننا سوف نقف فقط أمام بعض هذه المظاهر
فعلى سبيل المثال قوله تعالى في أول السورة ﴿ **الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣)**﴾

إذا ما تأملنا الدلالة المعجمية لكلمة الحاقة في ضوء الدلالة الصوتية لها التي تصور شيئا يرفع شيئا فشيئا ثم يوضع فجأة ويقر في نصابه ومكانه الذي يستقر فيه إلى الأبد فإننا نجد أن هذه الدلالة الصوتية قد جاءت متجاوبة تمام التجاوب مع المعنى المعجمي لهذه الكلمة في إحقاق الحق وإعادة الأمور إلى نصابها وإقرار كل شيء في مكانه الصحيح ، ووضع كل عامل في مكانه اللائق به .
ويأتي تكرار كلمة الحاقة بسماتها الصوتية السابق لتأكيد هذا المعنى من كلا الطريقين طريق الدلالة الصوتية وطريق الدلالة المعجمية.

وإذا ما تجاوزنا هذا المعنى الذي ألحت الآيات علي توكيده فإننا نكاد نستشعر معنى آخر وظفت فيه تلك الكلمة بسماتها الصوتية كصوت محض استعمل كخالفة من الخوالف التي تطلق في مقام التنبيه والإفصاح عن مكنون النفوس بطريقة لا شعورية

هي أشبه ما تكون بالصراخ والعويل والنحيب في هذا الموضع الذي نستشعر فيه نبرات حزينة لإنسان يصرخ وينتحب لهول لتلك الساعة الموصوفة بتلك الأوصاف الرهيبة في هذه السورة حيث يتجاوب الإيقاع الصوتي لتلك الأوصاف في فواصل الآيات في (**الحاقة والقارعة والطاغية والعاتية والواقعة ...**) لتأتي تلك الفواصل معبرة عن طريق ما اشتملت عليه من المدود الصوتية المتعددة التي استخدمت كصوت محض يحدث نوعا من الصراخ والعويل والنحيب المخيف من أهوال تلك الواقعة أو أهوال الأخذ الشديد للمكذبين بها .

وثمة ظاهرة صوتية أخرى في هذه السورة يجدر بنا الوقوف عندها قد شاركت في إحداث هذا الإيحاء بالعويل والندب والنحيب في هذه السورة في سياقها من أوله وحتى الآية التاسعة والعشرين فيها كصورة من صور التكرار المطرد .

وهذه الظاهرة هي تكرار الهاء في فواصل هذه الآيات جميعا سواء ما كان أصلها التاء في (**عاتية _ خاوية _ باقية**) أو ما زيدت للسكت عليها في نحو (**كتابيه _ حسابيه _ ماليه _ سلطانيه**) وهي أوقع ، وذلك لأنها تدل على أن السورة قد قصدت قصدا إلي توظيف تلك الهاء بما لها من دلالة صوتية ظاهرة في تلك الآيات نستشعر فيها معنى التحسر والندب والنحيب ولا سيما في هذا المقطع الأخير المعبر تمام التعبير بدلالاته الشتى عن ذلك المعنى في تصويره الحالة النفسية للكافر حينما يلاقي صحائفه السوداء ويوقن بوقوعه في الهلاك والعذاب فيقول :

﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩)﴾
الآيات من ٢٥ إلي ٢٩

وإذا كانت الهاء قد وظفت في أغلب فواصل هذه السورة للإيحاء بهذا المعنى معنى التحسر والندم والتفجع والندب والنحيب ؛ فإن الإعجاز الصوتي للقرآن يتجلى في توظيف تلك الهاء نفسها بدلالة مخالفة تمام المخالفة لتلك الدلالة السابقة حيث توحي لنا في سياقها بعكس تلك الدلالة السابقة تماما . وذلك في قوله تعالى :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤)﴾
الآيات ٢٠ _ ٢٤

إننا نستشعر في النطق بالهاء في هذه الآيات إيحاء بطمأنينة القلب ، وقرار العين والنفس ، وبلهنية العيش ونعومته ، وسكونه وهدوئه ، ويساعد على إبراز هذا المعنى ما للهاء من سمات الهمس والرقة .

وإذا كنا قد تحدثنا عن دلالة المد بالألف في الفواصل السابقة فيمكننا الوقوف كذلك عند دلالة المد بالواو في قوله تعالى ﴿**خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢)**﴾ الآيات ٣٠ _ ٣٢

حيث نستشعر في تلك الآيات قيمة المد في إبراز مدى المبالغة بالأمر بتعذيب هذا الكافر وأخذه ، كأنه قال خذوه أخذا شديدا ، وغلوه غلا وثيقا ، ثم صلوه تصلية أليمة ، واسلكوه في تلك السلاسل سلكا دقيقا كما يوحي هذا المد كذلك بحالة الشدة وهيئة البطش وجبروت الانتقام التي يكون عليها هذا الآمر بالعذاب في ذلك اليوم الشديد .

التكرار الصوتي في سورة ق

من المظاهر الواضحة للتكرار الصوتي في سورة "ق" تكرار سمة القلقلة في فواصل هذه السورة عدا عدة مواضع تم العدول فيها عن هذه السمة الصوتية لغرض بلاغي .

ومن المعلوم أن السمات الصوتية المصاحبة لحروف القلقلة هي الانفجار بماله من دوي وقلقلة واهتزاز . ويتأمل سياق السورة نجد أنها تعالج ما عليه نفوس هؤلاء المشركين من شك وتكذيب واهتزاز وتقلب في أمر العقيدة ، وقد عبرت السورة عن هذا الاهتزاز والتقلب معجميا بقوله تعالى ﴿**فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ**﴾ آية (٥). وتواجه السورة ذلك الشك والافتراء والاهتزاز والتقلب في أمر العقيدة بالآيات الكونية الثابتة الشامخة ، وبمشاهد القيامة المروعة بما تحدثه من دوى وانفجار هائل يهز كيان الكون ويقلب أوضاعه ويقلق كل ثابت ويحرك كل شيء في هذا الكون .

ومن هنا تأتي حروف القلقلة بسماتها الصوتية السابقة متسقة مع سياق الآيات تمام الاتساق سواء على مستوى الغرض الأول وهو التعبير عن افتراء الكافرين وتقلبهم في أمر العقيدة وتكذيبهم بالبينات وقوارع التخويف[١٣٠].

فعلى مستوى الغرض الأول تأتي القلقلة في (**عجيب**) آية (٢) لتعبر عن القلق والاستغراب والتعجب والشك والافتراء في أمر العقيدة وكذلك الفاصلة التالية

---

(١٣٠) هذه المواضع هي (حفيظ) آية (٤) ، (محيص) آية (٣٦)، (المصير) و(يسير) آية (٤٣)، (٤٤) وقد بينت سبب العدول الصوتي فيها في بحث العدول الصوتي.

(بعيد) آية (٣) و**(قريب)** آية (٢٥) لتعبر عن استبعاد هذا الأمر بما يصاحبه من اهتزاز وشك ، وتقلب في وصف ما جاء به النبي **(صلى الله عليه وسلم)** بأنه شاعر أو ساحر أو كاهن أو غير ذلك من الصور المختلفة المعبرة عن استبعاد صفة النبوة عنه واستبعاد التصديق بالبعث والنشور والحساب والجزاء الذي ينذر به . ولذا تأتي الفاصلة رقم (٥) لتقرر أنهم في أمر **(مريج)** وتأتي دلالة القلقلة في هذه الفاصلة كذلك متآزرة تماما مع دلالة ذلك المرج والتقلب في اعتقاد المشركين فيما جاء به النبي **(صلى الله عليه وسلم)**

أما على مستوى الغرض الثاني فتأتي حروف القلقلة في فواصل السورة معبرة تمام التعبير عن الانفجار الشديد الهائل الذي يقلق كل شيء **﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢)﴾** ومع مناسبة القلقلة والانفجار لهذين الغرضين والمعنيين على العموم في سياق الآيات فإننا نكاد نستشعر للقلقلة معنى خاصا في كل فاصلة يتجاوب مع معنى الآية التي ورد فيها بخلاف ذلك المعنى العام .

فمن ذلك قوله تعالى : **﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾** ق(٧)

حيث يأتي معنى القلقلة هنا متجاوبا مع تلألؤ أزواج النبات واهتزازها بهجة ، كأنها من ابتهاج الناظر إليها والرائي لها تهتز في عينيه

كما نجد أن هذه الفاصلة قد وظفت لعكس المعنى السابق وهو الاهتزاز والقلق والتقلب لتعطى معنى الثبات والاستقرار والدوام في قوله تعالى

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)﴾

حيث تأتي دلالة القلقلة في " **قعيد _ رقيب _ عتيد** " موظفة بمعنى الثبات واللزوم والاستقرار ، ويأتي تكرار الحرف المقلقل **(الدال)** لتأكيد هذه الدلالة ،وتأتي مناسبته الصوتية لهذا المعنى من جهة أن قلقلة هذا الحرف عند نطقه تعطى ما يشبه بالاتكاء عليه ولزوم موضع النطق به وثباته حينا قبل حدوث الانفجار بالنطق به ، ويأتي هذا الاتكاء واللزوم والثبات المصاحب لنطق الحرف متسقا تمام الاتساق مع ثبات القرين ولزومه للعبد وقعوده منه مقعدا لا يزول عنه ولا يحول

وقد وظفت القلقلة بنحو هذا المعنى في العديد من فواصل السورة في التعبير عن صور الثبات والخلود في هذا اليوم المشهود يوم الوعيد وذلك كما في الفواصل **(الوعيد)** مكررة في (١٤)، (٢٠)، (٢٨) ، (٤٥) وكما في **(الخلود) (٣٤) ، (مزيد)(٣٥) ، (قريب) (٤١)** وأشباهها .